أيمن الغزالي

الساعد الغربي

رواية

نينوى

السّاعد الغربي

اسم الكتاب: الساعد الغربي

اسم المؤلف: أيمن الغزالي

عدد الصفحات: ١٤٢

القياس: ١٤,٥ * ٢١,٥

١٠٠٠/٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ

طبعة ثانية



سورية . دمشق. ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +

هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني - دار نينوى

أيمن الغزالي

السّاعد الغربي

رواية

أيمن الغزالي

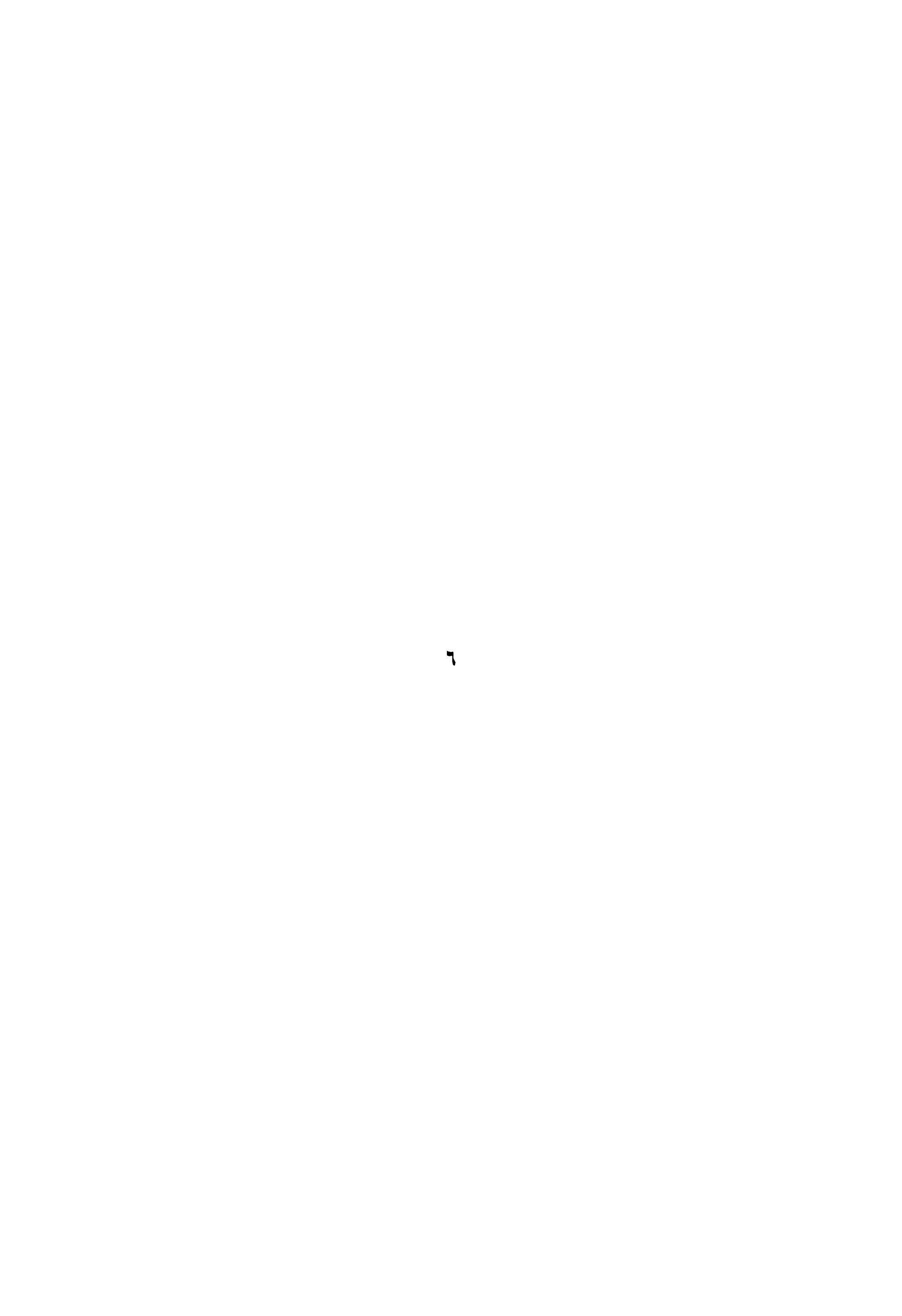
روائي وناقد تشكيلي

له: لذة القراءة في أدب الرواية

الإهداء

حيثُ لا مكانَ للعيش دونَكِ...

أيمن الغزالي



العتبة



٨

لا أعرف يا سارة لماذا دائماً أفكر بالمطر.. اليوم الشمس على غير عادته، كنتُ خارجاً للتو من أقبية الشتاء، ها هي الشمس مرة أخرى تتوهج فتتبخر الرطوبة الكامنة في الأماكن والتراب والتي تراكمت طيلة الشتاء، مما سمح للناس بالخروج من بيوتهم، والأولاد وهم يقفزون على مصاطب الشمس، في الحدائق والممرات والشوارع، بألوانهم المرزكشة، البراقة، كل هذا جعلني على نحو ما، أستعيد تلك الأيام البعيدة الآن ونحن نستحم تحت الشمس الحارقة في السهول والوديان، ونحن نفتش عن النباتات البرية، ونتصيد الحمام والعصافير، معفرين بالتراب وكانت الأيام أكثر أمناً وسلاماً لأحلامنا المؤجلة...

ولهذا كان يبدو عليَّ بالرغم من كمية العذوبة والصفاء التي تغمرني وأنا أعصر ذوائب روحي تحت وهج الشمس، ثم ما يلبث أن يتحول هذا الإحساس، فأشعر بذلك الزوغان الباهت للأشياء وهي تنكمش تحت امتلائها بالظلال، فتبدو الحياة كئيبة، هشة، وغير مجدية.

لكن ما كان يبدو أكثر ظلاماً وإيلاماً هي تلك الرحلة التي تعبر دائماً تلافيف الذاكرة وتسبح مثل رمل الصحارى في جوفك، مريرة متشحة بالمباغتة والرجاجة. وكثيراً ما تبادر إلى ذهني سؤال، كاد يلازمني حتى في نومي وكنت دائماً أهرب من ثقله، إلى أن

أحسست ذات يوم، وإذ به يضغط على روحي وكأني لا أستطيع الخروج من تحت وطأته وثقله، حينها فقط، وإلى اليوم.. لازلت أشعر بذلك الضعف الشديد، وخيّل إليَّ أن الأمور إلى حد ما مؤقتة، أو أنها لسبب ما، حدثت.. وربما تحدث.. لكن فيما بعد تبين لي أنها كانت تأخذ اتجاهاً آخر، وكان ذلك دليلاً واضحاً على خراب المشاعر والأحاسيس الملتاثة باللوعة والحزن والحنين.

أقول هذا، ليس من باب التعتيم أو الفلسفة أو إدهاش الفكرة. أو جرها إلى أبواب مغلقة، لكنها الفكرة التي تحاصرك وتكاد تشق عيونك وتخرج، لكنها قبل ذلك تتدحرج داخلك، تمر على كل أحزانك وآلامك، تتشكّل فاردة سياطها، لتأخذ لنفسها شكلاً وحجماً ثم تندفع بقوة، وما إن تخرج حتى تنفجر، فتوهمك بالموت، ثم بالحزن، ثم ما تلبث أن تتحول بفعل ما إلى غيمة، سحابة من يأس، تمور أمام ناظريك طاعنة في أشد تفاصيل ذكرياتك، مائرة تقتحم العود والعامود، لا تتقشع ولا تتماهى، وتبقى كما الأرض بكل تفاصيلها وتضاريسها بعد انفجارها الأول، هكذا تبقى مليارات السنين.

إنه الحزن ياصديقي!.

الموت، بطريقة متسلسلة وبطيئة.

«ولنقل هذه المرة.. إنها مختلفة!.

..! قلت لك يا سارة آلاف المرات يجب أن ننحرف عن وهمنا، عن خط سيرنا، حتى يتسنى لنا أن نعيش بسلام، بأقل أذى وإيلام

ممكن، لأنه لابد بعد ذلك أن نشيخ ويصبح من الصعب تغيير شيء...»...

بقيت سارة متحفظة تجاه كل ردود أفعالي وخاصة فيما يتعلق بالجانب الفلسفي من الحياة، وخدعة الثقافة والعولمة ووهم العلوم والإنسانية.

وكنت فيما بعد، أتوقع أن الأمر سيتحول بالتدريج ليأخذ شكل عادة غير محببة، إلاّ أنني بقيت مدهوشاً وبشكل دائم أمام تلك الحالة العصية على الفهم أو الاعتياد.. ومرّ زمن، كان خلاله كل شيء يفنى وكل شيء يغيب.

تركتني وتصوراتي على حافة الجنون وقالت:

«... عابرون، نمتطي صهوة اللحظة لاقتناص تفاصيل الرغبة الملوثة بالطاعة والانمحاء».

قالت عبارتها وخرجت

ومن يومها، أطالع ما تبقى من الخراب، أقرأ أيام الصمت والانمحاء التي عاودت تولد من جديد مع المطر.

... وحيداً حبا تحت مطرها ليلاً... حتى لا تأسره الرحابة وبلادة الحياة فيها، هبط... تحت، قريباً عند سراب الكلمات، ومراتع الفصام، وراح يهيل الشتائم والسباب على الحياة وأمريكا والعالم.

لم تأسره الرحابة التي سعى إليها، وأولجته خارج الكهف.. كان لا يزال لصيقاً بهفهفاتٍ غامضة راح من خلالها يصيغ السمع لتكتكاتها الوهمية والمريعة. عبر الأسلاك الوعرة داهمه (وادي

الرقاد)، التوى معه ضمن تعرجات غارقة في العمق، أطفال يمرحون، مساكب قمح، حنين إلى مصاطب الضياع، غيظه الذي انفجر، انشرح رويداً للفجر والسفح الأخضر.

ظلَّ ينهبه المشهد..

نفس الطراوة الفجرية بحافاتها الضبابية، التي بدت دائماً كما لو أنها أغلالٌ في عينيه، وهو لا يستطيع غير أن يستسلم لهواها وفتوتها. ظلَّ أميناً، وكثيراً ما كان يتسلى بأحزانه، نفس السذاجة والطهر والحب. نفس الشعاعات المرتدة.. نفس الظلال، الأروقة الصخرية، والبرودة الراشحة في العمق.

أيامه الأولى...

بكر الحياة.. اعتاد رعيها المجنون، دروبها الصخرية الناتئة، وطاها المدمر والمباغت، قطعانها العائدة، شمسها الهاربة، حيث لا شيء يمكن أن يصحو تحت هذا الخلود.

كان على حافة الانهيار.. في رأسه تتوالد - حيث هناك تقبع أهازيجهم في خفوت الصخر وحناجر السنونو الراجعة - دلفه الصامت، أغانيه، همهمات الرياح الغربية، كل شيء كان ينذر بشيء ما، وبَعْدُ لم تنطفئ ناره، صلوات أمه، حنين إخوته وعينيه مسارح صيف. لعيني أمه رنين أسياف لا يعرف كيف حملها بقلبه صدى حفيفها المتلصص خلفه والموجع، ينبلج من داخل الكهف، فتتكسّر حدة المهابة التي أورثته حزنه، غشت رؤاه وهو يتلوى مع الوادي قبل لأي، أصاخ السمع من جديد، عاوده رعب الأيام الأخيرة،

في الكهف..

في الليل..

كما في النهار..

يولد دائماً ولا يشيخ.. يا أيتها الجلالة..

ما زال لديَّ وقت، أهازيج وعويل، كم وجه للصمت، كم قبلة للمكان وكم حزن للموت.

ظلَّ ينهبه المشهد وهو ينحدر باتجاه وادي اليرموك.

إلى أن أصبح شاهدة قبر...

١٤

بداية الصيف..
بداية العلاقة

-١-

آه يا نادر!

كيف تورطنا إذن بفك هذا الانغلاق الذي لا يفك، ثم أني كثيراً ما أستعيد تلك اللحظة الأولى، حين كان بمقدورك العجيب أن تطل عليّ، على نحو عابر ومازح، لتعلن صداقتنا بكلمات قليلة لم أعد اتبينها الآن..

أحياناً أقول: كان يعني المطر الذي انهمر ذلك الصباح.. أو عن ذلك الرجل الذي هادنني وانسحب، يجر خلفه أحلامٍ وذكرياتٍ، على قميصه تعريش وشوشات وعطور نساءٍ وآهات، وهو ينحني بعيداً، بقيت كلماته ترسم ذلك الحبور والدهشة والسؤال، أجوبته المختصرة، ضحكته الرائجة فوق، هناك حيث تهدأ ثم تهطل، ثم تمطر على يباس، فتضحي لهيباً لاصفرار يباسها بعد ربيع عاشه واستنشق هواه..

هادنني وانسحب، واتفقنا على نذالته أو كبريائه. أحياناً أستعيد حركات مربكة مستعيناً بحدس مسبق عن هذا الشاب الذي وقف في عرض الشارع، في مكان غير مكانه وزمن غير زمنه.. لكنك جئت لتعلن، أنك متورط أيضاً بهذه الأشياء العصية.. والملوعة والمريبة.

بيدَ أن الزمن وحده كان مختلفاً، وهنا كانت المشكلة.

... اعتقدت أن الكنوز تنام دخيلتي... أنا الرجل المجرّب الهارب على قمم الجبال، النائم على الصخور وفي بطن الوديان.

كنت تقف، وكان الحزن والقلق يتقافز في عينيك وهما تبرقان بالشموس والأمل، كنتَ على الرصيف المقابل... وربما على مدخل الكاريدور الطويل الذي يصل إلى المطبعة التي كنت تعمل بها.

ماذا قلت لنفسك يومها..؟!

هل مازلت تذكر وأنت تمضي من فكرة إلى أخرى من نبل إلى إحساس إلى حزن وكنت تائهاً، مسكوناً بآلام ومواويل، فيضان عينيك وهما تفوران تحت غضبك المُلحْ والمستعجل، نبرة صوتك الهارب، غير أن ضجيج الآلات في الخلف كان يعبر فيصيب مشهدك الحلمي بالالتباس الجميل، حيث أوهمك وأنت تنظر بوجهي تماماً، وجهي الداكن والمتعرّق، بأنك تعيش بالفعل أشياء كانت متعذرة، ورحت تستحضر كما يحصل عادة في هذه اللحظات التي من صنع الروح وهي تفيض بالحب والحنين، أشياء لم يتمّ جمعها من قبل وهي أيضاً غير قابلة للفهم، ولا يمكن توصيفها على أية حال بالرغم من أنني أعرف كثرة ماوطأها من أرجل وشموس واستلقاءات يحيطها كل هذا الرجاء، لجعلك متهجساً ومشتهى كالطبيعة.

هل تذكر ذات لقاء بعد معرفتنا بفترة قليلة عندما صحبتني إلى ركن الدين؟ إلى بيت صديقك الشاعر أو القاص لم أعد أذكر، لكنني أستعيد تلك الليلة كأول محاولة للانعتاق الثنائي وبالفعل هذا أول ما كنا نفعله عندما نتصادق أو نحب، فنصحب الأصدقاء إلى أصدقاء آخرين متباهين باكتشافاتنا، مقدمينهم إلى أصدقاء جدد مكتشفين فيما بعد التجربة كم كنا حقيقيين أو متوهمين أو كذابين ومخادعين هكذا كانت تبدأ الصداقات أو الحب، كنا

نبني علاقاتنا، دائماً مع الآخرين، لأننا نخاف الهدم، أو حتى لنجد محامين أقوياء وشهوداً على قسوة سلوكنا وأفعالنا وانهيار علاقاتنا مؤكدين بذلك مشروعية أحلامنا وقداسة ونبل مشاعرنا من خلال توسع المشاركة، ودخول طرف جديد في سجل ذكرياتنا الممتلئة والخائبة.

كنت دائماً أقول لك يا سارة عندما أحببتك.. لا أعرف، وقتها... أحببتك بذاكرة سليمة، نقية مثل قلبك، كان لدخولك صولة وجولة وصولجان، حضور هائل وعارم أفرغ ذكرياتي وأشبع فضول الذاكرة، امتلاءً.

يحصل أحياناً أننا نُجزِّىء ذكرياتنا، أو بالأحرى لنقل إننا نخصص فيها معتقلات ومعسكرات، فنحتفظ بمن نشاء وليس بالضرورة بمن نحب ونسرِّحْ أو نعتق مَنْ نشاء وكثيراً ما نباغت فجأة فإذا بك تحت أمواس حادة لذكريات اعتقدت أنك أغلقت عليها أو محيتها وقذفتها في سلال عميقة وسحيقة، فتنوس وتصبح رجراجة تحت وقع أسياطها الموجعة والحدّاءة.. فإذا بك واهم مستكين لخيانة القلب والروح معاً، هكذا لا تهدأ مشاعرنا ونحن نبرر كل شيء، ونمضي نلهث تحت حضور الذكريات ونفجع بالأسئلة.

الآن يمكنني أن أستعيد كل شيء..

فالاصطحاب الأول شبيه بمغامرة، فكل شيء فيها يصير مفعماً وواعداً ومدهشاً، فإذا بك تقدم كل نبلك وتبرز كل مقوّماتك وتضحياتك وأخلاقك، وينطلق اللسان في جولة بانورامية استعراضية عن المنجزات والذكريات، كل ذلك يتخلله الضحك والمجاملة

والدخان والقهوة والكتب والمجلات والجرائد وكذلك الشعر الأشعث والجينز الكاحت والفوضى.

أضواء المحال على طول الشارع كانت كأنها تبعث ألقاً فريداً لا يتكرر، وكنتَ أنتَ تزداد شهية ونضارة وتبدو بجانبي مثل حدّاء بشير.

هبطنا الإسفلت المقابل للكشك على طرف الشارع عند مجرى النهر، عبرنا من أمام رجال ثلاثة يقفون أمام أحد المحال التجارية، وهم ينظرون إلينا، لا يفعلون شيئاً سوى تأمل السابلة، قلت لك، أو قلت في نفسي عندما قبضت على أصابعي فجأة لننحدر سلماً متواصلاً وطويلاً..

بعد ذلك إلى صديقك في القبو المطل على فسحة تراكمت بها أشياء مهملة. تخلفتُ قليلاً عنك، وأنت تمضي إلى الباب وتدخل كصديق قديم ويومي، واستعدت وأنا أعض على شفتي السفلى «الشيخ إمام» كان تشابه الأمكنة يشي بذلك، أقبية أخرى كثيرة دخلناها، أولى مغامرات العمل السياسي ونحن نغني «يا فلسطينية وأنا بدي سافر معاكن... ناري بإيدي... وإيديٌّ تنزل معاكن على راس الحية وتموت شريعة هولاكو» ... و«شرفت يا نيكسون بابا يا بتاع الووترغيت» و«البحر بيضحك ليه... ليه وأنا نازلة أدلا حاملة القلل».. فجأة فتح الباب... ودخلت.

ولمّا ناديتني لأدخل كنت أرتعش، بما يكفي لألقي على صديقك القديم ما يكفي من الحميمية، بيدٌ أنه فاجأني عندما سألته أنت... وأنت دائماً تسأل السؤال ذاته... ودائماً درويش... يومها كانت الجدارية

قال إن لديه ما هو أهم للقراءة... حينها لم تلاحظ الرسالة التي عناها، لكنني فيما بعد سأصطدم بها كثيراً ولم يمضِ وقت طويل لأدرك أن الشوفينية تبدأ عندما تنهار أحلام هؤلاء أنصاف المثقفين وأشباه المناضلين، ليأتي الدكتاتور ليقودهم ويوجه حذلقاتهم وضيق أفقهم... يجدد بها أمجاده الزائفة والسليبة، كان زمناً صعباً بالفعل، لكن هذه هي ضرائب التاريخ دائماً... الصميمية تحمل دوماً قدراً من الهمجية.

عندئذ أدركت أن السذاجة التي قادتنا ذات يوم إلى الكبرياء والمثل، كانت سذاجة العواطف التي صنعت أفكاراً عظيمة وكبيرة، وإن ظلت غير مفهومة ذلك أن سذاجة الأفكار تقود بالضرورة إلى عواطف ضحلة..

والآن كيف نعيش..؟

العواطف لا تزال تنبض على نحو مخيف، غير أنها لم تعد ساذجة بما يكفي لصنع مغامرة في مهب الريح.. هل غدت الكتابة خياراً أخيراً.. وكيف نكون أوفياء إذن لهؤلاء الصبية الذين سنركّضهم في بهو الأوراق.. هكذا تبدأ الخيانة بالفعل، وعليك أن تضيع، بالرغم من أنك تعرف ماذا تعني رواية منجزة، والمسألة برمتها لا تتعدى مساحة ضيقة أثناء الكتابة وبعد إنجاز النص بقليل، لأن الأفكار والخيالات والحقائق التي لم تتوفق بالخروج وأنت تلتهم بياض وجدانك، قد أَفَلَتْ وغابت شمسها وأصبحت غير قابلة للطرح وغير صالحة حتى للحوار، حين لا تزال أنفاسهم ومصائرهم مجاسات عملاقة تهرس آلامك بآلامهم... ثم عما قليل يبتعدون وتبتعد.. تتحدر آنئذ بعد أن تفصدهم

تماماً من دمك، وتعود وحيداً كالليل، مهمشاً أو بالأحرى تتذكر تلك المصائر أحياناً، وتشعر حينها كم هي غير مجدية.. وسخيفة أيضاً، أثناء ذلك وبإرادة أو بدون إرادة بقصد أو بدونه تكون قد أفرغت الكثير من ذاكرتك وكذلك أخبار من هنا وهناك لالتقاط رواية جميلة وبطباعة فاخرة وأنيقة تتوعد فيها كل الذين جمعتهم في خلوتك وزدت من مساحات أخلاقهم ومدحتهم، ثم بقلمٍ حبرٍ جميل تُوقِّعُ إهداءاتٍ مرفقةً بجملة واحدة للجميع وتوقيع كبير.. كبير مذيّل بتاريخ «إهداء على الصفحة الأولى فقط... والتي تحمل عنوان «روايتك».

قبل ذلك تبدو لك المسألة غير جادة، وربما مكرورة... فيها مباهاة وتواطؤ وخفة، لكنك أخيراً عندما توفّق وتخلص منها في آخر الليل... ما الذي يمكن أن يضاهيها عندئذ في هذه اللحظة وأنت تشعل السيجارة الأخيرة على استواء فراغ ذاكرتك على نحو رصين وهادف وحقيقي أحياناً أخرى، ثم تستلقي رويداً، على ظهرك مسدداً عينيك في مكان ما أو في أثداء جمر السيجارة، عينيك العصيتين على الوصف آنئذ وأنت تلتهم بهما واجهة المكتبات وعيون القراء وهم يتهافتون عليها مثل الكذب.

هنا... واللحظة... والأشياء... والحضور، مساحة لتتكشف أمامك على نحو مبهم وعميق، تلك اللحظة وأنت سيد الكائنات وحبيبها، هذه اللحظة وأنت تطوي الحياة برمتها بإسهامة عين، هذه اللحظة الحقيقية، فقط... وما تبقى تفاصيل وهراء.

هكذا تدرك وأنت تنال مساحات أوسع، ثم تعود لتتهمش لا تستبعد إذن أن تجدني ذات يوم عنصراً في عصابة، ليس للأمم المتحدة

أو لقوات حفظ السلام الدولية. وإنما عصابة جمع مصائر وآلام هؤلاء البشر الراكدين على آلامهم كالتماسيح العملاقة.

بينما كنتُ أفرغ تهويماتي أوقفتني عن هذياني قلت لي: يبدو أنك قد نعست أو مللت أصبحت ضجراً، انتظر قليلاً، قررت أن أخبرك أشياء كثيرة لا زلت في بداية الطريق، يجب أن تتحصن بالوقت وإلاَّ ما معنى أن أكتب ولا تقرأ...

تقول رواية مشتركة...

لماذا لا تكون مغامرة مشتركة، ألاَّ تعتقد معي بأن الحياة مغامرة نعيشها ربما فرادى، وربما شركاء، والنتيجة أننا بكلتا الحالتين ضعفاء، فالوحدة بقدر ما هي قوة، هي ضعف لعدم إيجابيتها، والشراكة ضعف لأنها جزء من كل وأنت بين الوحدة والشراكة منحوت على طبع الوفاء... الرواية مغامرة...

أبدأ إذن لتقودني إلى اللغة... اجعلني أستلقِ على ظهري ساهماً، لأنهض عما قليل وأكمل عنك، بماذا تفكر الآن ما الذي تود الإجابة عنه، ما الذي يمور في خلجانك وأنت تمور، سمعتك تهجس ذات يوم بأشياء وتفاصيل كثيرة كانت منحوتة على نحو جنوني في ذاكرتك وأنت تخلد إلى رعشها المسهب في العشب والتمني والرجاء دالاً على أكثر الأشياء صميمية، عندما تتوقف عن الروي، فتنزوي راكداً مجلجلاً بأفكار كثيرة، دفعة واحدة ألقيتها وأنا الآن مشغول بفك رموزها العصية على الوصف والحيادية وهذا القارئ المسكين كيف سيعبر صمتك المفاجئ، يديك وهما تحومان مع حروف جملك المترابطة والقاسية، جلجلة دموعك وهي تغمز بارتحالات مكشوفة.

أنت طيب ومجنون!

ذكّرني بماذا كنت تهجس؟..

... سكة تفصل سهلين... جماعتين... لا أذكر لكنني تخيلت المشهد عبر عينيك، وكنت في هذه اللحظات أود دوماً أن أؤكد لك أن الملاحم الكبرى تصنعها اللغة، والبشر ليسوا أكثر من مادتها، أو ربما على العكس، لكن عندما يصنع البشر الملاحم الرهيبة... هل تكون اللغة مادتهم، أم السيوف والدم، وتلك الفيوضات الإنسانية، الرعش الإنساني الذي يسكب على نحو مضنٍ وقاصم..

اللغة إذن كيوم الحساب..

شيء لاحق للتجربة فإما أن يذهب بك إلى الجنة أو إلى النار وكلاهما حساب، فأيهما تريد أن تجرب، لأنها بذلك الإحياء والخلق تُدخل على التجربة ذلك الشيء غير المرئي... المجهول والغامض في الإنسان..

.. لاحظ إذن كيف تغدو الكتابة شيئاً أفخم من التجربة وأكثر نبلاً كونها تزاوج وتخلط بين الحياة الفعلية للبشر والحياة الوهمية للعقل.. الفعل بالحلم على نحو لصوصي ونزق.. مترجّياً ومتمنياً.. أيهما أقل، أيهما أكثر..

ومع ذلك كانت السكة التي تفصل السهل.. مجرد شيء اعتيادي مَرْوي كثيراً لأنك ستقول لها علاقة بالحكم العثماني والخط الحديدي الحجازي وتدخل على السياسة... لا...

كانت شيئاً اعتيادياً وعابراً لولا دخول عينيك على المشهد،

أخوك كان يركض خلفك في ذلك الصباح لتشاهدوا القطار الذي لم يمر منذ أزمان طويلة.. قال لك هيا لنجتازها ونركب تلك الصخرة.. ونتظر من هناك.. سبلت عينيك ورحت تنظر إلى الأفق.. إلى الساعد الغربي والضفة الأخرى للساعد أنت إلى الآن لا تعرف لماذا داهمك الخوف، وعلى نحو ما شعرت أنك لا تستطيع ترك ظهرك للسهل والاستغراق في النظر إلى القطار الذي سيمر كانت الريح بداية ذلك الصيف تندفع عبر آلاف الأميال على كتف الوادي من دون مصدّات... وكان لحفيفها بالسهل صوتٌ لا يمكن نسيانه أبداً... إنك لا تزال تعيش المشهد كلما استحضرته ذهنياً أو حاولت استرجاعه أو رويه بكل ما وطئه بأحشائك من خوف... أنت لم تعرف من أي بلاد تأتي الريح وإلى أي بلاد تمضي... كان الصوت... صوت الريح وهي تضرب في السهل يدفع هذه الجهالة لديك بخوف مجهول... فظيع لا طاقة لك به والآن وقد عرفت القرى النائية في السهل ولّت مخافة الريح وعرفتَ أن مصدر الأسطورة الوحيد الجهالة.

قلت لك يا نادر:

هكذا تركت خربة الريحان... ومن نار إلى نار ماضياً إلى المدينة التي جمعتنا الآن وها أنتذا.. كأنك تجولت وحيداً في الأرض... وبالفعل وطئت أمكنة لم تطأها من قبل... أحياء... محافظات... بلدات صغيرة... دروباً مجهولة على ضفاف أودية وأنهار... شاهدت فلاحات ريفيات في سروة الصبح الباكرة، ومواشي تستحم بأشعة شمس الضحى، رجالاً مسنين يتعكزون أثوابهم البيضاء الطويلة مسرعين يدعوهم الأذان... حقول ملتهبة على حواف الأرض... أعشاب مصفرة نائمة في أجراف

الأغساق وشاهدت عرائش ذرًاها الزمن... آثارها... أعمدة وأوراق يابسة تخشخش في الريح... تحيطها أقفار محيَّرة تلفحها الشمس كل يوم بلا هوادة على مر السنين.. وأيضاً بيوت مهجورة تعبرها الدواب، دخلتها من فرجات هدمتها الأيام وحمتها نظرات عابريها الذين مضوا يوماً ما جنبها، مشيت في باحاتها، ولاحظت عبر ساعات طويلة... ساعات وفي رأسك دوار... الزمن والناس...

وافترضت أنه كان ثمة عائلة... أب وأم وأولاد... وفي الخلف نهر يجري... وفي المنتصف باحة ودالية عنب وتحت الأشجار المتباعدات ظلال وحيوانات تتفيأ، وكان ثمة أطفال يلعبون على مصاطب الحلم وأول زرقة الحياة ولونها البهيج، النهر يجف... الأشجار تذوي... الأب والأم يموتان... الأولاد يكبرون ويضيعون في زحمة الحياة... وأنت الآن موظف في السجل المدني مطلوب منك تقرير حول مصائرهم وحيواتهم أنت الآن جالس على طاولتك والساعة تشير إلى الرابعة فجراً وأمام ضوء خافت جالس وحيداً... وأنت مشغول بمصائرهم وتعداد ذواتهم وذكرياتهم وحزنهم وفرحهم... مَنْ طالبك بذلك، ولماذا أنت رهن تكليف حكومي أخرق، ستمضي وأنت تكتب ثم تنتقل فيما بعد في فصول أخرى إلى أحد أفراد الأسرة ستكتب عنه بقية الرواية اسمه (شريف الرزاز).

نافذة



ذات صباح

التقينا عبر طابع بريدي، في الكشك المجاور لمدارات الذهاب والمراسلة وكأن الصيغة الأخيرة كان لها لمسة المصادفة الأولى.

في مبنى البريد، وفي كشك مجاور يبيع الظروف ونبيع فيه أحوالنا مقابل قروش من أحلام نحملها بظرف ورقي ربما يهترئ من تعرق أيدينا ونحن نشاور الزمن في جدوى إرساله أو إبقائه في أرشيف حياتنا.

ابتعدت كثيراً... وفي حينها أجارتنا الخطوة العابثة بسلام كنا نبرره بذاكرة الأشخاص الذين لا نراهم إلا لحظة اليقظة المباغتة التي تدفعنا لأن نسأل متى وكيف..؟!

أخيراً:

وضعتُ الرسالة في البريد، وأنا أمنع نفسي من الابتسام لهذا الشوق الذي فجأة ذكّرني، من دون أن أتصور أن الأمنيات هي رغبة سيتأخر تحقيقها سنوات طويلة، وقد سبب لي ذلك الكثير من الآلام، وأنا أنظر إلى الأمور بالطريقة نفسها، من دون تفسيرات حقيقية، أما المناسبة الوحيدة التي كنت أستمتع بها هي ذلك الذهاب الآسر إلى الحقول والاستمتاع بمشاهدة الحمام والعصافير وهي تحلق بالسماء غير عابئة بآلامنا وكثيراً ما كنت أشعر بروحي وهي تحوم فوق تلك التفاصيل وأنا أقيم علاقات لونية مع الأشياء والأزهار التي نبتت في

كل مكان.

وقلت:

عجيبة تلك المشاعر التي تكسرنا إلى ذلك الحد الذي يفضح ضعفنا وهشاشتنا وتمنعنا من متابعة الحياة.

انتبهت فجأة وأنا أمام صندوق البريد الذي كتب عليه بخط كبير على لوحة نحاسية (البريد الخارجي) وخلفي طابور من الانتظار، تأكدت من إلصاق الطوابع وتأكدت من صحة العنوان والمعلومات الواردة على الرسالة وقبل أن أتراجع من الطابور، أجلس على المقعد الخشبي في وسط بهو مكتب البريد وأعيد قراءة الرسالة وتأثيث مشاعري على نحوٍ مدهش كما مشاعري في تلك اللحظة بالذات وأثير الكثير من الأسئلة.

أحب الأسئلة الكبيرة... الأسئلة التي لا جواب لها وهي تطحن عقولنا، من دون أجوبة.

هكذا انزلقت الرسالة فجأة في الفتحة المخصصة لها وبينما كنت أنسحب من أمام طابور المنتظرين خلفي شعرت بنفاذ صبرهم ونظراتهم المعلقة عليَّ، وربما كانوا يسألون.

ماذا كان يريد؟.

لماذا كان ينتظر؟.

يسألونك كذلك ماذا فقدت؟ ولمن أرسلت؟ ربما وبصمت مضيت دون أن أجيب عن أسئلتهم وكان الفضول يزعجني بسذاجته، وأنا أجيب داخلي عن أسئلتي التي ولدت كصمتي المريك.

هكذا تخيلت وأنا أغادر مكتب البريد، أنني أصل إليها مع الرسالة أمد يدي من باب الصندوق أو من حقيبة ساعي البريد وهو يمد إليها الرسالة وهي تتلقاها بأسئلة كثيرة وربما بأشواق، لم تنتهِ فيما بعد، لأنها كانت بداية فترة جديدة من اقتناص اللحظات التي لم تدرك لها معنى سوى أنها زادت في التدرب والقروح القاسية داخل سريان دورة الحياة.

حين تعرفت إلى سارة أول مرة، كانت هادئة، ذات أنف صغير ودقيق، نحيلة ترتدي بنطالاً من الجينز، وبلوزة زرقاء ذات أزرار ثلاثة تركتها مفتوحة لتفصح عن بشرتها البرونزية اكتسبتها من الأشعة فوق البنفسجية، وتحمل على كتفها حقيبة جلد بنية اللون، ممتلئة، لكنها لم تكن كذلك في المرات اللاحقة حين أفصحت عن ثورتها الداخلية ورفضها الشديد للمجتمع والعادات والتقاليد ولم يكن ذلك يتناسب مع هدوئها الدائم وتجولاتها مع النخبة وسفرها المتواصل إلى عواصم كثيرة لأغراض متعددة وبالرغم من كل ذلك لم تكن تمتحن شجاعتها في إرتقاء سلم الحياة، لأن ذلك كان يصعب عليها بحكم بذرتها الطيبة التي تخبىء خلفها شيئاً من المزاج الطيب وهي تهتم بالكثير من التفاصيل وسط صفوة الرفض والجهد الذي تبذله وهي تدرس وتطالع وحتى حين تتسوق لتشتري من عواصم أوروبية أجمل الثياب والأحذية والحقائب.

حين قدمها لي عصام ذات يوم تحت الجسر جانب النهر في كراج الحافلات وسط المدينة، كنت وقتها أنتظر الحافلة.

وبعد أسبوعين التقيتها في المكان نفسه، كانت إمرأة غير قابلة

للصدفة وهي تشي بتبدلات ملامحها وإن حافظت على بريق عينيها الطيبتين. إمرأة من أسرار وأسئلة، يصعب عليك وأنت رهين قرطيها التحدث إليها على أساس أنك تعرفها.

كانت الجهالة بيننا!

وهي تسأل:

هل نحن على موعد؟

أجبتها وقلبي بدأ يخفق وأنا أفتش بسرعة عن إجابة!

ربما، لكن لا يبدو ذلك.

ساد بيننا صمت جليدي وخيمت علينا غمامة وكأن كل واحد منا يريد أن يبوح للآخر، هل كنا مهزومين؟ هل كنا على مفترق حياة؟.

قادتنا الحيرة إلى الصمت، وكان قابعاً بكل ثقله، ونحن نستسلم لضعفنا هكذا بقينا ونحن واقفون أخيراً قالت وهي ترفع نظارتها.

ما أصعب أن تشتم شذى الأشجار وهي تحترق بصمت! ما أصعب الرغبة في الصراخ! وأنت تعرف بأن ليس هناك مَنْ يسمعك.

دعوتها إلى مقهى قريب. وعلى الطاولة لمست قرارة حزنها.

قطعت حديثها وهي تنظر إليَّ باستغراب

هكذا، أخشى من مشاعرك، ربما هناك شيء ما، أريد ملامسته أو القبض عليه، ويبدو أنه من الصعب توقع ذلك.

كنت أتحدث إليها، على الطاولة وأمامنا منفضة سجائر ودفاتر

وأوراق وأقلام، كنت أتسلى بترتيبها وأنا أعيد أشياء كثيرة، يتعذر عليّ مس جوهرها بهذه الفضاضة وأدركت أنني لمست شيئاً ما وهي تستعيد الرغبة في عدم الإحراج، أو ترك أي بارقة أمل لديها لما فهمته أثناء حديثها وهي تتعذر باكتشافي كأي رجل يريد أن ينال منها وهي مزيج من التعاطف والعطف والرجاء أيضاً.

خرجت وسط فوضى مشاعرها، وأنا أتدبر أكثر الأشياء حيادية كي أتركها، وهي تعرض عليّ صمتها بحياء محزن.

ومن يومها. فقدتها!

كانت لا تُنسى أبداً وهي تذوب في الزحام بعد أن خرجت وعيناي تنهب هروبها المرير.

منذ ذلك الصباح لم يعد كل شيء على حاله محتسباً، وأصبح بائع الصحف اليومية ونادل القهوة ضجرين من صمتي المفاجئ.

ولم تعد الدراسة أو المطالعة أو التجوال مساء في المدينة القديمة غايتي بقدر البحث عنها، في الشوارع ليلاً، ... نهاراً.

بقيت هذه الحالة فترة طويلة وأنا أكرر حضوري إلى ذاتِ المكان، وكان السأم قد نال من عزيمتي، لكنه لم ينل من إصراري في العثور عليها وأنا متلبس تلك الحالة، وأظن أنه لم يكن الحب وحده بالنسبة إلي. كما أنه ما من شيء دفعها إلى هذا الذوبان المتعمد، إلى أن داهمني حضورها ذات يوم، خرجت ليلاً ابحث عنها، وعندما فشلت دخلت إلى أقرب حانة أتصيد صمتي، شربت زجاجة بيرة مثلجة وفي لحظة ثقة كَويتُ مجامر الشوق والسر عندي، ثم

خرجت أستنشق الهواء العليل لليل دمشق الصيفي، عدت يومها إلى البيت قادراً على اكتشاف الحقيقة من جديد، وعن سر هذا الاندفاع.

منذ ذلك اليوم وأنا أحاول ذلك، واعتدت عليه كما لم يكن، واستعدت اهتمامي بكل من حولي، وكنت صارماً في ذلك.

عدت ذلك الصباح من البريد باتجاه المطبعة، في الطريق مررت بجانب سور المتحف، كنت قاصداً نادر، كنت أعبر وقطرات المطر تبلل روحي فأشمر بذلك السرور الطري وشعرت كم أنا بحاجة إلى استراحة، أستيقظ متى شئت أتجول في الشوارع أجلس في المقاهي وقتاً طويلاً، أتسوق أي شيء، أي شيء دون تحديد.

كانت الشمس دافئة ومقابل سور المتحف هبطت درجات السلم المؤدية إلى المطبعة التي لا زلت أعمل بها منذ ثماني سنوات على الأقل كانت أصوات الآلات منذ الصباح تعكر مزاجي الهارب إلى الهدوء والصمت أو المشي تحت مطر شباط الدافئ، كنت بالفترة الأخيرة أميل إلى الراحة وأكره أوقات العمل والاستيقاظ اليومي كآلة لا تتعب من الثامنة صباحاً وحتى الثالثة ظهراً ومن الخامسة مساءً حتى التاسعة ليلاً، كل يوم، دون ملل أو كلل.

في المطبعة جلست وقتاً قصيراً بعد أن شربت قهوتي، ثم خرجت مسرعاً بعد أن تلقيت إشعاراً بريدياً، لاستلام أوراق قادمة بالبريد المضمون، عدت إلى مكتب البريد وتسلمت الأوراق وقبل أن أغادر المبنى فتحت الظرف القادم من سارة من السويد، إنَّ سنواتٍ عديدةً من التجربة وغيابها لم يهدىء من احتدام انفعالي ولا من هواجسي، حطمت هذه الرسالة صمتي واحتفيت أنا ونادر في حانة قريبة ذلك

اليوم ونحن نشرب البيرة ونأكل السمك المشوي.

في حين قرأت له مقاطع شعرية من الديوان الذي أرسلته سارة من أجل الاهتمام بطباعته ولم تنسَ أن تذيل رسالتها بشكرها الخاص وأخيراً - قبلاتي لك.

قرأت لنادر:

أخرجوني من وحل ذكرياتكم

ليس لديَّ غير بلادة طوفانٍ

ينعرج نحو ضوضاء الشوارع

أتصحو حموضة العسل لديَّ؟

إنني أتعرى مثل بنفسجة في حديقة عامة.. لا يدخلها أحد.

وبينما كان نادر يصغي باهتمام إلى الكلمات، كنت أتذكر يوم كانت تطلب أن أنشد لها الأشعارُ وهي تتخفى بشعورها الوطني أو العاطفي أو الإنساني كنت وقتها أقف على الكرسي أمامها وألقي عليها أشعار محمود درويش، كانت أحياناً تبكي وأحياناً تحزن وقليلاً ما كانت تضحك. سنوات الحب الطويلة التي تقاسمتها معها لم تكن كافية لبقائها أو منعها من السفر، كانت تريد أن تبقى بمفردها أيام النصر أو الهزيمة ولهذا كانت تكنس الحياة بالغربة أو قتل أمنياتها.

تركت نادراً في الحانة وعدت إلى المطبعة لأنجز ما طلبته سارة مني، وبينما كنت أهبط سور المتحف باتجاه المطبعة كانت الغيوم تركض في السماء، وضوء الشمس بدأ ينحسر وبدأت الأمطار تهطل.



خربة الريحان



... على الساعد الغربي لخربة الريحان...

رأيت رجالاً يركضون في السفح، على امتداد عمره سيظل الرجل ينحدر، راكضاً في مساكب القمح جيئة وذهاباً، زوبعة من ريح، نادته زوجته.

ألقى نفسه في حضنها، وعصاه ترفع ثوبه الأبيض المتسخ فناوشها حنينه إلى حضنها.

في العمق كما أرادت منذ البدء.

الأولاد قفزوا عن الساعد فوق النواتئ فصاحبتهم تلك الأصوات الكامدة والصلدة المخنوقة، فتلقفتها غرائز النسوة بصلائل الأدعية والرعش.

وقف الرجل قبالتي، ضياع عينيه خالط خوف النسوة فران على الفور الصمت السحيق في الوادي.

حرك عصاه، انهمرت حصوات وأتربة، وأشياء دقيقة بلا ملامح، ظلّت تسوح في الفجوات المتبقية حواليه، يضيئها الفجر من الخلف، فتبدو شفيفة وداكنة بالرماد. جدي الذي تركني عند المنحدر، لم تشفع له حجحه في منعي من الوصول إلى الساعد الغربي الذي ظلّ دائماً لوعة اغتراب خصبة لمخيلتي في الممكن أو العدم. وبينما غادرني شرقاً خلف حلاله، غادرته تائهاً لتاريخ طويل لم أستيقظ من عتمته بعد.

قبالتي الرجل...

عيناه مشبعتان بالتيه، تجوسان الوجوه دون بعيدة ثم أخيراً لمّا شعر أنه لن يهتدي راح يشخط ويصرخ متوسلاً، كان قليل الحيلة.

لكنه أخيراً نطق جملته المريكة: «أوقفوا العمل في السكة الحديدية التي تصل بلاد الشام بالحجاز».

إلى الشرق... إلى الشرق يا رجال.. صاحت المرأة التي لحقت بنا، كانت تسمل عينيها بالنحيب، حافية، لكننا لم نستجبْ لنداءاتها.

وفجأة امتطت هناك وحيدة لساناً جرفياً شاهقاً وراحت تعوّل مثل ذئب جريحة، للحظة فقط حاولت لملمة اندفاعي، بيدَ أن الصخب الذي صاحب صوتها ونشيجها ظلَّ يهوي مترنحاً إلى القاع.

في السهب... هناك.

وكلما أوغلوا في الشرق، كانت فجوة الصمت تتسع بيننا ونحن عائدون، تتسع خلفنا مضببة بالرماد.

وتلك الرائحة التي تطفق من أمكنة كانت للتو ألوفة براقة، كما كانت دائماً، ثم فجأة... داهمتها الوحشة، وصارت مهجورة مريبة، يكتنفها الغموض وحفيف خطو غاشم. بدا «وادي الرقاد» مثل كتف سوداء طويلة، نحيلة عند حافة السهب الأخيرة التي لاحقتها طيلة خمسين عاماً، وفي الخلف تراءى الرماد المخلّف للتو والمشع في شفق شمس المغيب، مثل أكوان فراغية بلا حواف، امتطتها العتمة وظل صوته يُسمع وهو يتجه شرقاً إلى أن مات ولا زلت أذكر كما هو الآن، ملامح وجهه الداكن المريب، الذي ما انشق يفصح عن دماره الداخلي الذي هده، بين الممكن والمستحيل بين طموحه وواقعه، إلى

أن قتله.

وظلت جدتي حريصة على منابع عينيه، وميضها الحاد والجارف، والموجع، صوته المنتحب مع الفجر، حلاله السارح خلفه تحت أعمدة الهول والدمار.

... يا الله ما أقسى ألمه ووجعه... بعد ثلاثة عشر عاماً، عدت إلى القرية، التي كان يسكنها جدي، هناك بالبعد ذاته، وبأقل مسافة انزويت فارداً روحي لرائحة قهوته العربية، نزلت عند مراتع الهاون الراقص منذ ساعات الفجر الأولى، وبينما الشمس تشرق والحلال يعبر، كانت صورته لا تفارق مخيلتي العجيبة.

ادخل... اشرب قهوة

إلى جانبه جلست وكان نظره مثبتاً بأثداء جمره المنسحق في هشيم روحه البراقة.

يضحك!

ثم يضحك!

ثم يضحك!

ثم نضحك!

نشرب قهوة!

قال: نحو الجنوب، اتجهنا، وكنت خبيراً في مخاضات الماء التي تتاهبتها العيون العطشى بلوعة تعذر الانحراف إليها، أو ذاك الاستلقاء الفموي على سوائلها العذبة.

ظل ينهبه المشهد...؟!

ورويداً أوغلنا بالابتعاد إلى الجنوب الغربي، عند جسر اليرموك،

وبدت تلوح.. مثل مضاجع عرسان ملوحة وآسرة في عمق السهب، ثم انقلبت وصارت مصدراً جديداً للرعب، لمّا تناهى من أصقاعها صليل تطاحن أقوام غير بشرية مصحوباً بتلك الهمهمات البدئية المتوحشة. وعندما قطع الراحلون إليها «الشريعة» على نهر الأردن، وتسلقوا الدروب الجبلية، ألقوا على نحو كسول وعابر نظراتهم الأخيرة على السهب، فلاحت لهم تلك المخاضات مثل نعوش ليلية مهجورة ومرعبة.

يومها تساءل جدي:

كيف يموت الإنسان وفي أي مكان يوارى الثرى..؟...

ومع رائحة القهوة، تنبأت بنهاية جدي.

جدي

كان جدي مختاراً لخربة الريحان، ولم يكن ذلك يعني شيئاً، سوى أنه حوّل قسماً كبيراً من دخله السنوي وغلاله لسد حاجات وطلبات أهل القرية واستقبال الشرطة التي تزور القرية بين الحين والآخر وحل الخلافات والمشاكل بين الأهالي والمزارعين والبدو الرحل الذين يتجولون طلباً لقوت أغنامهم ومواشيهم.

كنا على أعتاب الخريف عندما دخلت فناء الدار الواسع، في البداية دخلت مضافته الكبيرة التي ورثها، وهي عامرة بدلال القهوة والشاي والحطب ومصبات الماء والمناشف ظل يهجس دائماً وهو ينتصب أمام الباب كحارس للحياة كلها. مقرّباً "مذياعه" من أذنيه يستمع لأخبار العالم، وهو يقلّب قرص المذياع لضبط إيقاع المحطات والصوت ويتمكن من التقاط كل كلمة من دون أن يضيّع عليه شيئاً، لأنه فيما بعد سوف يروي كل هذه الأخبار بصوت قوي ومرتفع أمام رجال القرية عندما يأتون مساءً إلى نزله الكبير.

ظل جدي نادماً طوال حياته، ومتذمراً، تسكنه الخيبة والدهشة، كان عصبياً.حاد المزاج لكن سرعان ما كانت تفيض عيناه بالدموع حين يشاهد أي شيء يمس رهبان روحه ووجدانه، فيلتحم صراخه بنحيبه وكان لا يخجل في كلتا الحالتين، إذ كان يمارس أحاسيسه بكل هذا الصخب، بكل هذا الصراخ، بكل هذا الهدوء من دون أن يثير ضجة أو مشكلة.

بقيت ملتحماً بعينيه اللتين كانتا تتوهجان مع جمره وهو يطبخ القهوة صباحاً، وفي الصباح أراه فرحاً وقلما كان متكدراً في

الساعات الأولى من النهار. كان يرافق غمزه دندنات غريبة لم أفهم يومها عليه ولم أسأله قط وظلت مواويله ترانيم صحو في وجداني إلى أن داهمه المرض ذات يوم. في الشهور الأولى لمرضه والتي تلت مواسم رجع حكاياته وحرب العراق الأولى، ندب وقتها الحياة والعالم، وفكر بأن الحرب المدمرة هي عار وضحالة مشاعر وتفكير وأعتقد فيما بعد أن السماء استجابت لدعائه بأن يخلصه من هذا الدمار والعار بدلاً من البقاء على سريره مستلقياً يتلقى استشارات الأطباء وحقن الدواء، وذهابه المتكرر إلى المستشفى، هكذا كان يفكر بصمت وهو يضع نظارتيه السميكتين المعلقتين بمطاط أبيض خلف أذنيه وهو يحرك قرص مذياعه الذي اهترأ ويراقب زوجتيه اللتين بقيتا حوله طيلة فترة مرضه وهو يشخط بهما ويسب ويشتم دون أن تتبسا ببنت شفة، ظل يسمع الأذان ويصلي في سريره وهو يستجدي الرب في الخلاص.

وكثيراً ما كان يتذكر كل شيء وهو يهذي، ثم ينوس، إلى أن يغلبه الألم، فيستسلم لذلك الاختبار الذي منحه فيما بعد قوة لاستقبال الموت.

كان جدي مَلاّكاً، يملك عقلاً متفتحاً وينتمي إلى أرض صلبة مدّعماً بتلك الشعبية التي بنت له خياماً من ظلال وأفيئة.

.. جلست زوجته محاذية له على طرف السرير تستدل على حرارته وبنبرة حادة.

إيدك (وهو يتألم)

ثم يتابع أنا كويس

بس حرارتك مرتفعة يا حجي!

أيقظ ذلك جنونه وبدأ يبرق ويشتم، ومن دون أية كلمة انزلقت من

على طرف السرير وجلست جانب قدميه تداعب روحه التي عذبها المرض وهدُّها.

من دون أي علامة انزعاج واحدة!

من أين ينفجر ذلك الحب... ذلك الطيبَ فينا؟

فتتسع له كل شغافك فتصبح رهيناً ومربوطاً له وبه، كل آمالك وأحلامك وقوتك، نرسم تلويحات من الملوحة ونمضي، تتخيل افتراشاً للسماء كما لو أنها ملكك، إلى أن يذوب وميضها في مراكبك.

تلك النداءات الخفية لأيام كانت خالية والشتاء على آخره، مطر اليوم وغداً تتقشع الغيوم وتصحو السماء بعد ليلها، لتبرق على صباحاتنا وهم وهشاشة. انحدرت نحو المقهى وكان نادر يعي شرودي وهو يتربص بأشد حالات الصحو عندي.

في حانة جانب النهر وتحت تأثير النبيذ الأحمر المز كويت رغبتي ومضغت تبغاً كثيراً، هيجان الذاكرة ولدّ في ذلك الإحساس المباغت والهرم، هكذا تولد الليالي من نهارها، تسقط الظلمة فجأة ونعبر، إنهم يعبرون دون استئذان، يرحلون محملين بالأسى والمرارة ويصبحون ذاكرة قلما نتذكرها وتغيب قبل أن تصبح عظامهم رميماً. فتذوب كالملح في باطن الأرض أما أرواحهم فتبقى بيننا تركض ولا تتعب.

منذ سنين يا نادر كنت أوازي بين الظلام والليل أعيد لهما انعطافهما شمالاً حتى البحر، وجنوباً حتى الساعد الذي يمر في ربعة جدي الغربية عند مهبط القطار وطريق السيل نحو مسيل الرعافة، أتلّمس الأماكن بسحرها، وبعيداً نغيب، تغيّبنا ذكرياتنا التي نحلم بها للمستقبل، هناك كنت أحتفظ بنكهة الأشياء كما هي، بعيداً عن التعقيد والأسئلة الكبيرة التي فيما بعد رافقتني وهي تضغط على روحي كما قلت لك في بداية الرواية.

فيما بعد صار ذلك حنيناً!

أيهما أقل أيهما أكثر، سارة وحدها كانت تلح في نبشي وبعثرت هواجسي على نحو كان يدفعها للجنون وهي تستحم تحت أسئلتي بلا إجابات وأحكي لها: كان جدي يتركني مرات كثيرة في البيادر تحت أشعة الشمس وأنا أحسن متعة الاستحمام، كنت أترك العمل، أرخي عظامي للشمس كما عقلي، أتحسس وهجها ولهيبها المر، معزولاً عن البشر، أسوّي الحياة بأصابعي راسماً بالتراب إياها كما تروق لي كنت مسحوراً، لها رنين تستوطن البال والعيون يصحبها خشيش سنابل القمح وأجراس الحمص والعدس دروبها الترابية، وطاها المباغت وفحيح أفاعيها الزاحفة، جذورها الخضراء، عشبها النابت على قلوب هؤلاء البشر الطيبين والذين يغتالهم الموت واحداً تلو الآخر.

مضى وقت طويل يا نادر، منذ انحدرت من الضفة الجنوبية للسيل، عندما ودعتني والدتي لأول مرة على حافة النسيان قالت يومها: الله معك...

وبصمت سالت دموعها ولم تجفّ بعد...

الآن وأنا مسكون بدموعها، وملتاع بمواويلها الحزينة خطرت لي قصيدة الشاعر مظفر النواب:

... إيه ربي
إن لي أمنية أخرى إذا وافقت
أن تغفر لي بعديَ أمي
والشجيراتُ التي لم أسقها منذ سنين
صارتِ الأزرارُ تُخفي ولذا حذرتُ منها
العاشقين

لا يقاسُ الحبُ بالأزرار

بل بالكشفِ إلاّ في حسابِ الخائفين

تلحفني حنين سارة المتهدج والموجع والذي ظلَّ صامتاً وقاسياً بالرغم من حرارته. ذات يوم هَمَسَتُ بأذنها عندما ودعتها في المطار قلت لها أشتاق لون عينيك واتساعهما.

تضحك، تسند رأسها على كتفي، يستيقظ فيها الغرور، ترمي بأطراف عينيها للبعيد...

سأشتاق لدمشق يا سعيد.

لم أجبها، وهي تسرق النظر إليَّ، وتحاول قراءة ردود أفعالي أو استجابتي لما قالت كان من الأفضل نسيان مشاعر الحنين المؤلمة التي تولّدت، فلم يعد حتى للحديث معنى وهي تفرض انطباعاً بأنها قد نسيت كل شيء.

يوم غادرت دمشق على متن الطائرة المغادرة الساعة السابعة مساءً، حضر الكثير من الأصدقاء بما فيهم عصام لوداعها في المطار، كانت ترتدي يومها أجمل ثيابها، وهي توزع ابتساماتها على الجميع والقبل كذلك إلاّ أنها لم تذرف أية دمعة، كانت صلبة وقوية ومؤمنة بما تفعله. وظلت تبتعد داخل الكاريدور الطويل المؤدي إلى الطائرة وهي تلوح لنا، أخيراً أدارت ظهرها فجأة وركضت...

يومها لم أنسَ وصيتها في أن أمر على جدتها كل أسبوع من أجل تلبية طلباتها وحاجاتها، عدت إليها.

قالت لي:

ادخل... يا سعيد... الله يسرّ لها.

دخلت... كانت الجدة تستمع ساهية إلى أجوبتي عن سبب سفرها ولماذا لم تتزوج وتبقى هنا، وكانت تعتقد أن سارة لها مواصفات

الزوجة النموذجية، كما أنها واثقة من أنها كانت تحبني، ثم قالت إن سارة عندها كبرياء – ما بتحكي إلي بقلبها... مجنونة شدت الجدة انتباهها أكثر وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة للإعراب عن مشاعرها حيال الكثير من الأمور التي تحاول أن تبدي رأيها، ولم تكن لتفوت الفرصة أبداً في كل مرة تتحدث عن سارة.

ضحكت وأنا أحاول تغيير الموضوع وصنع فرصة أسأل بها عن صحتها وأقدم لها ما تحتاجه لكنها كانت مصرة هذه المرة، أن تتحدث، قالت:

هي ما تبقى لي بعد وفاة أمها وأبيها مؤخراً، لكن هذا لم يجعلني أصرف انتباهي عن ترك سارة تعتمد على نفسها وتتحمل مسؤولية قراراتها وقناعاتها، ولم أكن لأطويها تحت جناحي وأغرقها بالاهتمام والحنان حتى لا أضعفها، لازالت طفلة إنني أشتاق لها ولا أعرف ماذا أفعل الآن بعد أن هاجرت.

قالتها وهي تعترف بهذه العاطفة المحضة التي تلهب جوارحها الآن وحين عادت تفكر بها من جديد بعد أن حاولتُ تهدئتها، تغيرت ملامحها وكانت تتحول بفعل ذكرياتها إلى عذوبة وخاصة حين ترفع نظرها إلي، ربما كانت تلمح تعلقي الصامت بحديثها وهي تبكي أو تتحدث عنها.

ثم تخفض نظرها وهي تهز رأسها بحسرة.

آه لو بعدها... كنتُ تزوجتوا، الله يعين قلبك يا ابني، كانت سارة تحب اللعب وهي طفلة، وازداد ذلك أول قلق البلوغ حيث بدأت تظهر عناقيد صدرها، ثم تحول ذلك فجأة إلى هدوء وصمت متناقضاً مع شكلها الصارم، كانت الحياة بخير بعدها.

كان والدها يمضي شهوراً وأياماً بعيداً عن البيت بسبب العمل

السياسي، لكنها كانت تعيش عودته وتمثل دائماً كيف سترمي نفسها بحضنه وهو عائد، إلا أنها انزلقت ذات يوم أمام العتبة المطلة على البحرة تحت عريشة العنب؛ وبقيت في الفراش شهرين حتى استعادت عافيتها. في تلك الفترة كانت تقرأ القصص، وأقص عليها الحكايات ووقتها بدأت تكتب الشعر، وحين يتأخر والدها في العودة إلى البيت كانت تكتب له رسائل بأسلوب جميل، لكنها لم تستطع إرسال أيٍ منها إليه بسبب عدم معرفة مكانه أو مجيء أي شخص من قبله، لهذا احتفظت فيما بعد بكل رسائلها إليه وهي الآن عندي.

هل تحب أن أعطيك أياها، هي من أثر سارة.

هل تحبها يا بني... سألَتْ:

خرجتُ... وفي حلقي غصة، بقي سؤالها مثل عنكبوت في أذني فالكلمات التي تخرج لا ينتهي أثرها بالسرعة نفسها التي قيلت بها، وبينما كنت أتذكر مشاعري في تلك الليلة التي لا تُنسى.



أنت ترهقني يا نادر بإلحاحك في رواية هذه القصص الآن وبعض الأحيان أشعر بأنه لا يوجد ما يستحق أن يروى وبعض الأحيان أتمنى أن أرويها كل يوم لبشر كثيرين فأشعر بالنشوة وأنا أقص تلك الحكايا البعيدة النائمة الآن هناك على طريق خربة الريحان في قرية تبعد عن المدينة مسافة جسد... ومعبد، سميتها البلد.

كنت ما أن أدخل إلى نزل جدي حتى يتفحصني من رأسي إلى قدمي، يتفحصني ملياً، ثم يشغل نفسه بقهوته، أباريق ومصبات ودلال قهوة كثيرة، ذات أحجام وأطوال مختلفة، يصب من الكبير إلى الصغير ثم إلى الأصغر ثم يعيدها، إلاّ أنني كنت متأكداً بالنهاية

أنني سأتذوق قهوة لذيذة وطيبة جداً.

إلى جانبه جلست من دون أن أشعره أنني أراقب ما يفعل، وأبقى على هذه الحال أتنشق رائحة القهوة وهي تخرج من باب مضافته لاستقبال زواره الذين يأتون في أي وقت، منذ الخامسة فجراً حتى منتصف الليل، يدخلون من دون مقدمات أو استئذان، يدخلون، يسلمون ثم يجلسون وكأنه بيتهم، ثم يطلبون قهوة. قد يجلسون طويلاً وقد يجلسون فترة قصيرة إلاّ أنهم دائماً يشعرون برائحة القهوة الطازجة المكوية دائماً بجمرها، والتي كانت أغلب الأحيان سبباً لقدومهم.

يرفع رأسه إلى الأفق، من الباب إلى هناك حيث مئذنة وشجرة كينا وحيدة في خربة الريحان، يتنفس ثم يدخن، ثم ينظر إليّ بإبتسامة فلما فارقت مخيلتي منذ ذلك الزمن الذي أتحدث عنه الآن، وأنا جالس خلف طاولة عليها إضاءة وقلم وورقة وعلبة سجائر وصحن وهاتف وماء وكأس ومحبرة وكأس صغيرة فيها قطفة ريحان أشتم رائحتها كل وقت. وعلبة فيها أقلام كثيرة. ملونة، وأوراق وحقيبة كتف ودفتر هاتف ودفتر مواعيد وملاحظات ومشاهدات.

كانت قرية بسطح واحد، خربة الريحان، ما إن تطأ سطحها حتى تدخل إلى بيوتها وأسرارها، سطوح طينية ملساء، مدلوجة بالمدلج، على أيدي نسائها، بالطين والتبن، مشمسة بتموز وآب، بين أزقتها مَرَّ أناس كثر، وطنيون ورجعيون، إخوان مسلمون وشيوعيون، بعثيون وفلاحون ومثقفون ومتعلمون، وجهلة وبدو، كلهم أقارب وأنسباء، كانت تستيقظ وتنام على صوت الأذان وصياح الديكة، بعيدة حيث كشعر والأعشاب تنمو بين حجارتها بأنك بعيد عن العالم، وبالرغم من كل ذلك فإن المحبة التي تجمعهم كفيلة بجعلها بستاناً، جنة، لا

أحد غني، لا أحد فقير، لا أحد جائع، الكل مثل بعض، هكذا كبرت خربة الريحان، أما مضافة جدي، فكانت هي المكان الرئيس لتجمع أهالي القرية والسهرات الطويلة والحوارات التي تبدأ أول الليل ولا تنتهي إلا في ساعات متأخرة على ضوء الكاز والحطب، وجوه مسكونة بالأمل تجادلوا طويلاً وهم يحاولون إيجاد الطريقة المثالية من أجل الارتقاء بالحياة والإنسان، والرؤوس واحات أفكار أحزاب وانقلابات وثورات، وكان الوطن بارداً كليل ثلجي، وكانوا رجالاً استوطنهم الحلم.

اجتمعنا على غير موعد كما يحصل دائماً ونحن نحرر ونقتل وندمر ونبني أوطاناً وفي نهاية المطاف تحت برد الليل وأمواسه ونباح كلابه كان يذهب كل واحد إلى بيته، نخرج من المضافة جميعاً، ونهدي ابتساماتنا في وداعات مؤقتة منتظرين أياماً قادمة لحوارنا.

لا أعرفُ الآن كيف استطعتُ تقليب مواجعي دفعة واحدة، أفردها بهذه الطريقة وكانت لا تصدّق وأنا أروي لها هذه القصة بالذات.

كنت لسبب ما واهماً، لأن النتائج لا تلائم ما أتحدث عنه.

هي قالت يومها: بأنها باتت على حافة النسيان تصحو من فاكهة الابتعاد، لتلوذ بالاحتماء من مودة الندم، مثلما هاجرت أوراقها وعيناها، انسحبنا تحت مظلة اليأس، نلهث مكللينَ باللحظة، أصياف لها طراوة الريح، لماذا يعترينا السكون ونحن بعدُ أول النطق، نتهجى ابتساماتنا من عبق اللقاء، نزف إلى الموت قطعانه مع وميض الحبق، نصابُ لنلتاثَ باللوعة، ونحبو على طرْفنا بغتةً من صهيل الوجع.

سارة التي عدلت من جلستها قليلاً ونحن نجلس على سريرٍ في غرفة وحيدة بملحق في إحدى أحياء دمشق، ومن شباك عالٍ ترى فيه جبل قاسيون، تغطيها بين الحين والآخر حركة الستارة ذات الألوان المزركشة مع الهواء الذي يهاجم صيف آب الحارق.

استوت بجلستها وهي تنظر إليَّ منتظرة أن أكمل حكاية جدي التي بدأتها.

نظرتُ إليها وقلت:

هي ليست مهمة إلى هذا الحد، دعينا ننمْ الآن وأكملها لك في وقت آخر.

لم تتم ليلتها وأنا أقص عليها تفاصيل حكايات عبرت ولم يبقَ منها سوى ذلك الرعش المضني وأنا أتذكرها الآن، والتي تحولت بالتدريج إلى صور متقطعة وغير مترابطة، أحياناً تكاد تنطفئ.



تم انتخاب جدي مختاراً للقرية... وبهذا تمكن من ممارسة بعض سلطاته وأفكاره التي كان دائماً يحاول من خلالها النهوض بالمستوى العام للقرية سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو التعليمية، لكن هذا الأمر جعله أكثر التزاماً بقضايا ومشكلات القرية التي بدأت تكبر وتتعقد في الفترة الأخيرة نتيجة الانتماءات السياسية والحزبية واختلاف التيارات وبداية الوعي الذي بدأ ينتشر بشكل بسيط بين الطبقة الجديدة من المتعلمين، وكان أحدهم خالي «ابن المختار».

نسيت أن أقول لك يا نادر:

كان الجهل والأمية تنتشران في القرية ولا يوجد إلاَّ القليل من بين سكانها الثماني مئة القادرين على القراءة والكتابة والذين تعلموا عند الشيخ في الجامع، كان جدي من بينهم، وكثيراً ما كان يمضي وقته يفك رموز الرسائل الواردة إلى القرية أو يكتب رسائل للمغتربين أو بعض الشباب الذين يعملون في فلسطين ولبنان والكويت والعراق أو الذين ذهبوا للخدمة الإلزامية.

كنت أجلس إلى جانبه وهو يكتب رسائل بخط واضح وكبير ويترك الكثير من الأحرف بدون تنقيط ويذيل رسالته باسم راويها.

أما عندما كان يقرأ الكتب أو الرسائل الواردة إلى القرية فكان يضع نظارتيه السميكتين ويبعد الورقة عن عينيه ويقربها حتى يستطيع قراءة الخط، وهم يجلسون أمامه مدهوشين ومتحلقين حوله وهو يقرأ أخبار المغتربين وكثيراً ما كان يزيد على الرسالة وأنا أراقبه وأضحك أو ينقص حسب الحالة، قد يزيد أخباراً سارّة ليزرع

الطمأنينة في نفوس أهله وذويه أو يخفف من الأخبار السيئة حتى لا يزعج أهله.

دخلت عليه أم أحمد وهو جالس في مكانه المعتاد في صدر بيته وأمام عدّته.

تقاطعه:

الله يخليك يا عمي- ارجع اقرأ لي الرسالة مرة ثانية طمّني... الله يخليك عن أحمد.

يعيد قراءة الرسالة هذه المرة بشكل مختلف عن المرة الأولى، ومن خلال القراءة الثانية يحاول أن يقرأ ما تريد أم أحمد وهو ينظر في عينيها ويستشعر ملامحها هل هي راضية أم لا عن أخبار أحمد الذي ذهب إلى لبنان ليعمل ويعيل إخوته وأباه المُقْعَدْ من حرب النكسة. وبعد أن ينتهي من قراءة الرسالة ينظر إلى أم أحمد:

ها أم أحمد... كيف... الأخبار سارة أليس كذلك...؟

هل أقرأها لك مرة ثالثة، اطمئني هو بخير وأخباره سارة... إن شاء الله يعود بالسلامة إلك ولإخوته ويحسن وضعكم.

تلملم أم أحمد نفسها... وتنسحب جارة خلفها الكثير من الأسئلة والأسى الذي نبت فجأة على محياها وهي تخرج.

اجلسي أم أحمد... اشربي قهوة!

شكراً يا حجي... الله يرجعوا بالسلامة مالي حدا غيروا

طولي بالك يا حرمة... ادعي له

بقي الحاضرون صامتين، بعد خروج أم أحمد من المنزل

قالت جدتي:

يا حرام يا أم أحمد إلي ما لو حظ لا يبيع ولا يشتري

الله يصبرها... زوجها مقعد ومشلول وأولادها صغار ما في غير

أحمد... الوضع صعب. قال جدي عبارته وهو يقف ليتناول المذياع أدار المفتاح...

اسمعوا... الأخبار

يسب ويشتم... يا حرام... الفاعلون... التاركون دائماً كان يردد هذه الكلمات.

ثم يغضب...

جدتي تجلس أمامه

- طول بالك يا رجل الواحد منا. مش طالع بإيدو شي يعملو وما عملوا

- إنتِ هيك مفكرة، المسألة ليست طالع بيدو أو لا المسألة مسألة خيانة.

منذ البدء، أُسِرتُ إلى تلك العلاقة الغريبة التي كانت تربطني بجدي، والمستحيلة أحياناً، بالرغم من قساوتها، وبذلك الشعور الدفين والخفي الذي يجمع ما بين الوهم والحقيقة. الجهل والعلم.

ظل صامتاً وهو يستمع إلى نشرة الأخبار، بينما جدتي وضرتها دخلتا لتناما.

كانت ملامحه حادة وقاسية ما إن يبتسم أو يضحك حتى تستقيم عضلات وجهه ويبدو أكثر توهجاً، كان على قدر كبير من العصبية وكنت أشعر بمودة غامضة تجاه هذا الوجه وضعف تجاه صبره الذي لا يشبه صبر الآخرين.

في المساء... حيث الغيوم السوداء كانت تسبح قادمة من الغرب، والسماء مربَكة، قالت جدتي عندما خرجت إلى الباب لتقرأ طالع الليلة.

- الليلة عصيبة... الله يبعث الخير... هالسنة خير... قالت عبارتها

ونامت.

لقد أمضى جدي وقتاً طويلاً من حياته في قراءة التاريخ والكثير من الكتب الدينية، محاولاً بذلك تعديل مزاجه المائل إلى التأمل في التاريخ والناس والحياة معاً، وهذا ما أكسبه فيما بعد الكثير من المرونة والتعقل واستيعاب الظروف التي كانت تهدد المنطقة والقرية بشكل خاص سواء كان الموضوع يتعلق بالمواسم والفقر والتخلف والجهل أو المرابين الذين يأتون من المدينة لنهب خيرات هؤلاء المساكين. ومن جانب ثانٍ حاول تدعيم فكره في حواره الدائم مع الأحزاب الأخرى في القرية والتي تعتمد على الجانب النظري والبحث في توجهاتها ولم يكن هناك جدوى بالأصل في إبدائها، لهذا كان يبدي دائماً عدم اكتراثه حين يتعلق الأمر بالحوار الأيديولوجي بعيداً عن التجربة أو الممارسة الفعلية لهذا الفكر أو لهذا المعتقد، وكثيراً ما كان ينتقد الذين يدخلون المساجد ثم يخرجون للكذب والنفاق والنميمة وارتكاب المعاصي من وجهة نظره، والأكثر من ذلك كان يصف أصحاب النظريات بالمتآمرين على قوت الشعب وعفويته وسذاجته، الواهمين.

لقد كان شعاره الحوار من أجل الوطن وهما الأساس في تبني الأفكار ومقياس صارم لاختبارها وهي تسقط أثناء مرورها في مخاضات التجربة، وكان هذا بحد ذاته مصدر قوته حين يستمع إلى ترانيم قلبه وهو يخفق.

كانت القرية تعج بالأحزاب اليسارية واليمينة والوسط، الرجعية منها والتقدمية حسب التقييمات اللاحقة لسلسلة هذه الأحزاب والانتماءات، عاشت خربة الريحان الكثير من الصراعات وكان هذا

بحد ذاته حبيس أزمات ومصائر وتخلف ورغبة في الخروج من غريزة الموت إلى غريزة الحياة. وصار جلياً مقدار الهوّة الهائلة التي تفصل بين التوجهات والرغبات الحقيقية ولهذا ظل هذا الصراع يشلّ كل الاجتماعات التي كانت تحصل في منزل جدي حتى ساعات الفجر الأولى، حيث يخرجون وقد هدهم الحوار والنقاش والخيبة، مدركين في لحظة ما التورط وعدم القدرة على التراجع وقد يكون ذلك بديلاً عن حالة الملل والضجر وحتى الفراغ الذي يعيشونه، إذ لم يكن في الأفق أية بوادر إيجابية أو جدية في تحسين الوضع العام لخربة الريحان وإنما مجرد أوهام مستبدلة فاقدة.

كان منزل جدي مخصصاً لاجتماع يوم الأحد، الذي أصبح تقليداً لابد من الحضور إليه، ولم تقتصر هذه الاجتماعات على الحزبيين فقط وإنما كان يحضر شيخ المسجد والكثير من المثقفين والطلاب والمهتمين وحتى بعض أهالي البلد الذين كان يستهويهم النقاش ويبدون تذمرهم من بعض الأفكار ويشجعون بعضها الآخر خاصةً حين يلمسون أنها تمس تحسين أوضاعهم، وكانوا لا يوفروا أية حركة أو كلمة أو تصفيق إذا لزم الأمر للتعبير عن تفاعلهم.

وما حصل في الاجتماع الأخير من يوم الأحد، حين دخل جدي والرجال الآخرون يشوبهم القلق والتوجس والخوف وبدا الاجتماع كأنه دراسة أو تخطيط لعملية وهذا ما دفع القادمين إلى بيت جدي مساءً أن يأتوا فُرادى الواحد تلو الآخر.وهم يتلحفون صمتهم وخوفهم.

بقي الاجتماع حتى ساعة متأخرة من الليل، حين دخل أثناء ذلك شخص كان يرتدي بزة عسكرية (فلت خاكي) وملتحياً، بدا الارتباك واضحاً في الاجتماع وبدأ الهمز والغمز، رحب جدي بالقادم وتابع:

- الليلة خير يا جماعة، خلّ الأرض ترتوي حاجة قحط، الأرض

تشققت والمحل قتل الناس وزاد مشاكلهم. لنبدأ حوارنا حول المشاكل التي تواجه خربة الريحان في هذه المرحلة العصيبة فمن جهة الفقر يزداد بسبب قلة الأمطار والقحط ثم انحسار أماكن الرعي نتيجة الجفاف الذي يستمر منذ خمس سنوات، أضف إلى ذلك المشاكل التي تعاني منها القرية حيث لا توجد مدرسة ولا مركز صحي ولا خدمات ولا توجد وسائط نقل لنقل الطلاب إلى مدرسة المنطقة الوحيدة، وكذلك انتشار الجهل والأمية.

- لقد تصرفت معكم في المرة الماضية بكثير من الفضاضة، والشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقوله لكم الآن عن نفسي هو أنني لم أرغب في طرح المشكلة على هذا النحو البسيط والساذج ولم أتمكن حسب معرفتي من تبني موقف واضح وصريح حيال أزمة القرية أثناء الاجتماع الذي حصل الأسبوع الماضي في مقر المنطقة مع النواب ورئيس المنطقة لأن الحكومة الجديدة قدمت أعذارها للنواب نظراً للاحتياطات الكثيرة التي يتطلبها بناء بنية تحتية ولهذا علينا الاعتماد على أنفسنا في تأهيل أبنائنا للدراسة أو في بناء مدرسة للقرية وخزان مياه صالح للشرب وهذه مهمتنا كوننا متفقين على ذلك.

تدخّل أحد أهالي القرية وهو من أوائل المتعلمين قال:

سوف أبعث برسالة لإخوتي الذين يعملون في الكويت والعراق من أجل تحويل مبلغ مالي واجمعوا الباقي لنباشر ببناء مدرسة في القرية.

قال آخر:

وأنا أقدم الأرض ثم نخاطب الجهات الرسمية ونضع المدرسة تحت تصرف التربية، ولدينا في القرية عدد من المؤهلين والمجازين الذين يقومون على إدارة المدرسة وتعليم أبنائنا.

سأل جدّي: - وماذا عنك أيها الضيف الجديد؟

أرى أنك تريد أن تحكي شيئاً ما، ويبدو أن لديك آراء كثيرة.

- لا يا حجي ليس مهماً لهذه الدرجة ما سأقوله وأنا الآن بينكم، اعتبروني واحداً منكم، والشيء الوحيد هو أنني أود مشاركتكم في حل بعض المشاكل التي تواجه القرية ولدي أخبار عن حزب جديد، حزب العمال والفلاحين والكادحين من سواد الشعب، حزب وطني استمد أفكاره وتنظيراته من واقع الحال، ليس مستورداً سيوفر هذا الحزب المساواة والعدالة للجميع وسوف يقوم ببناء المدارس والمستشفيات ويحرر المرأة من الظلم والعبودية والجهل، والعامل والفلاح من التخلف والفقر.

ارتفعت الأصوات فجأة في المضافة!.

قاطعه جدي:

أعرف عنه شيئاً، فمنذ فترة في هذه المضافة بالذات سمعنا من أحد الأشخاص شيئاً عن هذا التنظيم. أثار حديثه ضغينة الجالسين، واحتد الحوار وتصاعدت الأصوات بين المتحاورين بين مؤيد ومستفسر مما اضطر جدي إلى تهدئة النقاش الذي وصل بينهم إلى حدٍ لا يوصف، علماً أن الأغلبية استقبلته بكثير من التفاؤل والحيطة نظراً للوعود التي قدمها مندوب الحزب في هذه الجلسة.

هكذا انتهى الحوار... وخرج الجميع من مضافة جدي.

هذه الصورة توقظ فيَّ سؤالاً، بجوهرها المجرد الذي راقبته وأنا صغير في مضافة جدي وكنت لا أزال بعدُ أتعلم القراءة والكتابة من جدي وهو يكتب رسالة أو معروضاً أو يقرأ بريد المنطقة والرسائل الواردة إلى القرية.

كان جدي حاداً فيما قاله ولم يكتفِ ولو لمرة واحدة عن إرضاء روحه ونفسه وهو يتقن معنى التمييز بين الخطأ والصح وتصويب

المواقف التي قد تنال من حضوره القوي والعنيد ولهذا أسند إلى ابنه الكبير بشكل مبكر مسؤوليات كثيرة تتعلق بإدارة شؤون المنزل والكثير من العمليات الحسابية في المواسم والبيع والشراء والتعامل مع العمال والفلاحين الذين كانوا يعملون لديه في الحقول والبيادر أو الدار الكبيرة والرعي بدوره. وكان يتمم هذه المسؤولية بسلطة روحية تضمن له الشعور بالامتلاء والثقة التي منحها إياه والده.

وبقي جدي ستَّ سنوات يحمله على كتفيه صيفاً وشتاءً مسافة ستة أميالٍ ليصل إلى المدرسة على طريق ترابي يمر بوهاد غارقة في الشوك والأحجار والصخور الناتئة ليصل إلى المدرسة، وكثيراً ما كان يتعب فيضع ولده على الحمار إلى جانبه حتى وصل إلى الصف السادس وحصل على شهادة السرتفيكة، ثم فيما بعد أرسله جدي إلى العاصمة لمتابعة تعليمه. أما في الصيف فكان يأتي إلى خربة الريحان لمساعدة والده في جني المواسم والغلال وتقديم الولاء والطاعة له، كان يراه مزهواً بحلمه الذي دغدغه طيلة أيام الفقر والحرمان ومصاطب الأمل التي استولت على طموحه وتأخر زوجته الأولى في الحمل، فشعر بتلك الأحلام وهي تهرب، طموحه الذي بناه هناك في البراري الخالية مع حلول السراب وعودة الرعيان من مسارح الشمس، وهو لا يهدأ مثل نيزك انفجر فجأة على أزمانٍ وحكاياتٍ ومشاهدَ عابرةٍ ومنسيةٍ، وانبثاق روحه التي طوت في جنباتها نزوح عينيه إلى أولاد يمرحون في مغارب الدار وهم يهزجون بأغاني الفلاحين وترانيم الصلوات، حيث كل شيء لم يكن بالحسبان، ثم فجأة تداهمه الوحشة ضمن مجتمع متخلف وأمي تتهبه سقوف القيض وزوابع اليأس وهي تهش بذلك الضعف الذي يجرح إحساسه بالمعنى من دون أن يخرج دوامة الأسئلة التي تتقل دائماً محياه، ولهذا دعا إلى حضرة وعيه

أحكام نابليون الفرنسي باستشهادات القوة وفهم معنى التاريخ وحركة الزمن، وذهب إلى غوته ذات يوم إلى بلاطه كي يمدح فيه هذا الجانب، وجدي وحيدٌ في أرض وحيدة وقاحلة ولا يملك سوى القرآن ومذياع الأخبار الذي أوصله إلى وحشة جنونه.

الآن وهو يرعى أفكاره التي لا تزال بكراً، وهو يتعافى بأن يرى ابنه يحمل كراسات المدارس ويخطو باتجاه المستقبل.

كان يقول لي دائماً الدراسة.. عليك بالعلم...! العلم يا جدي نجاة من الفقر والجهل والظلام. كان يضع في يدي عشرة قروش وسرعان وما تختفي في يد صاحب الدكان الأعرج الذي يعطيني بالمقابل قليلاً من الحلويات، وبالرغم من ذلك كنت أهرب من المدرسة الدينية التي سجلني فيها جدي في المسجد، وكان باعتقادهم أن ذلك سوف يخفف من حدة أسئلتي عن الخالق والحياة والموت وهي الطريقة الوحيدة لتحويلي إلى كائن مروّض وعادي ورغم ذلك لم يستطيعوا إخماد أسئلتي التي لم يُجبْني عليها أحد إلى اليوم، كنت أنام في بيت جدي، جانبه، وأقضي باقي النهار في الكروم والبيادر مستأنساً بعودة خالي من المدينة وهو يحمل حقائب كتبه ودفاتره وثيابه والتي دائماً كنت مهووساً في تقليب صفحات لا أعرف منها سوى الرسوم والأشكال ويستهويني ذلك الذهول والدهشة، فيضحك جدي:

إن شاء الله بكرة بتكبر وبتتعلم!

كبر ابنه ناصر، وحصل على إجازتين في الطب والحقوق وتسارعت الأحداث بعد هزيمة حزيران وما إن هدأت فوضى الحرب، حتى خلف ذلك مرارة أخرى على جدي الذي ما برح يشفى منها ويتعافى وهو يلوك مرارته وألمه.

دخل عليه ناصر:

ما بك يا والدي؟

لم يستطع ضبط نفسه وألقى باللوم على المتعلمين والثوريين والأحرار من وطنه.... حرام... حرام... قال جدي:

لقد كانت الهزيمة سريعة، لكن بذرة الحياة التي سقتها آماله كانت أقوى من اللوم والمرارة التي حاصرته.

الاسم الحقيقي لجدي هو شريف الرزاز.

ولد هنا في خربة الريحان عام ١٩١٧ واختار اسمه والده تركي الرزاز الذي كان وحيداً لأبويه، مثلي عاش جدي وحيداً فيما بعد، إلا أن ذلك لم يكن ليؤثر على دوره في الحياة، أو القرية. في سنواته الأولى برز كواحد من الأطفال الذين لا يرغبون في اللعب مع أبناء جيله، ولهذا كان يقضي وقتاً طويلاً في مضافة والده مع الرجال الكبار وكان لا يكف عن إبداء رأيه في كل ما يطرح أمامه من مشكلات وقضايا، ولهذا أرسله والده ذات يوم إلى العاصمة في وقت مبكر لتعلم القراءة والكتابة عند أحد الكتّاب، ويعمل ليلاً كحارس وقائم لأحد المساجد في العاصمة، عندما عاد إلى القرية بعد سنتين ألزمه أبوه على العمل في السكة الحديدية إلى جانب الفرنسيين، لهذا تعلم الفرنسية وأصبح مطّلعاً على الكثير من الثقافات من خلال الكتب والأفكار التي كان يحصل عليها من هذا الاتصال، وعندما أصبح في التاسعة من عمره، توفي والده تركي الرزاز برفسة بغل في الحوش أمام مضافته حين دخل ليتفقد الخيول والحمير وعندما تأخر قليلاً دخلت إليه زوجته لترى ماذا حصل فإذا به قد فارق الحياة من ضربة في مكان خطأ، وعندما اقتربت منه لتحاول أن تتأكد من الوضع، رفسها البغل ووقعت جثة فوقه. وهكذا عاش جدي "شريف الرزاز" بلا أبوين وهو في التاسعة من عمره، وبهذا ورث جدي كل أملاك والده أراضٍ وحلال ومزارع واسعة وبيت قديم فيه مضافته وأربع غرف للنوم ومستودعات حبوب وزريبة حيوانات وغنم وحوش للأبقار وغرف كبيرة للأعلاف والتبن وغرفة تحت الدرج

للمونة وقاع دار واسعة نصب عليها ركّاب لخضّ اللبن، وعندما أصبح عمره إحَدَ عشر عاماً زوّجه أقاربه من قريبة له تدعى فاطمة سواس.

بهذه الطريقة بدأت حياته دون أن يكتشف منها شيئاً إلاّ أنه على مدار السنوات القادمة سيظل كئيباً وحزيناً، ويميل إلى العزلة ويعاني من صعوبة في النوم.

أنجبت له فاطمة سواس طفلة وبعد عشر سنوات أنجبت له طفل، وضمن احتفال كبير تم استقبال الطفل، بعد ذلك واجه جدي الكثير من المعاناة، عندما بدأ أقاربه التدخل في شؤون حياته والجور عليه في حدود الأرض لأنه أنجب من سيرث هذه الأملاك.

ذات يوم خرج جدي في الصباح الباكر إلى صلاة الفجر وأثناء خروجه من المسجد كان الظلام لا يزال يسترخي بعد، ولم يتكشف النور، شعر بأن هناك أشخاصاً يترصدون له خلف المسجد، استند إلى الجدار مذهولاً، وعندما وضع يده على قبضة باب المسجد ليعاود الدخول تجاوزاً لهذا الموقف، أمسكه أحدهم من الخلف وجره إلى خارج المسجد وبدأ يتلقى على وجهه وظهره وصدره وبطنه ضرباً مبرحاً ليجد نفسه بعد اثني عشر يوماً ممدداً على سرير في المستشفى، شرح له الأطباء عندما استيقظ بأنه في وضع خطر، وحتى يتجاوز المشكلة لابد أن يتقاوى على نفسه ويشكر الله على سلامته. كانت زوجته إلى جانبه تنظر إليه بعينين حزينتين وهي تنظر إلى كمية الأنابيب والأجهزة التي تدخل وتخرج منه.

من الذي فعل بك ذلك؟

لا أعرف يا فاطمة... لا أعرف

كان يتحدث بصعوبة وسألها عن ولده قال لها:

- خلي يكبر.

كانت فاطمة سواس زوجته الأولى تكبره باثنيْ عشر عاماً، عندما بلغت الأربعين ولم تنجب له سوى هذين الطفلين، اضطرت إلى تزويجه من حسنة، وهي ذات شخصية قوية ومظهر حسن.

كانت الغاية من ذلك إنجاب أكبر قدر من الأولاد ليكونوا سنداً لوالدهم وحماة لرزقه وعرضه، لكن حسنة لم تنجب أبداً، صبيّة في ريعان شبابها، كانت تمضي أغلب وقتها صامتة، تعمل أشياء كثيرة في البيت وتعلمت عادات البيت بدءاً من الاستيقاظ حتى النوم، كان جدي يفرض نظاماً قاسياً في البيت في كل شيء ولهذا لم تعانِ كثيراً في التعود على هذا النظام نتيجة تربيتها الأرستقراطية في بيت والدها.

شفي جدي من هذه الحادثة بعد ثلاثة أشهر قضاها في المستشفى والبيت متنقلاً بينهما، خلال ذلك حدثت أشياء كثيرة، وكان جميع أقاربه ينتظرون موته بفارغ الصبر.

أمضى الرجل ذو اليدين المغطاة بقفازين طبية وهو يرتدي مريولاً أبيض أمامه في المستشفى استدار إليه وقال له:

الآن بإمكانك الخروج أصبح وضعك جيداً ولا حاجة لأن تبقى في المستشفى بعد ذلك.

أخيراً سحب نفساً عميقاً ثم فتح الباب، وعندما خرج فاضت عليه موجة دافئة من الارتياح وهو يتحسس أعضاءه ويمشي على الأرض بدون سنادة أو عكاكيز.

عاد إلى القرية!

وفي اليوم التالي تزوج من حسنة بأمر من فاطمة سواس زوجته الأولى.

سأظل طيلة حياتي مديناً لهذه المرأة بالكثير، إن زواجي الآخر قد عزز على نحو ما تثبيت قدر كبير من أحلامي التي كانت ستشيخ وتذبل.

إن ما كتبه كونديرا في الخلود هو امتحان لشهوة الحياة وتحقيق أحلامنا في حين يقترب الموت ومعه الخلود، «لأن الموت والخلود يشكلان زوجاً لا ينفصم أحدهما عن الآخر أجمل من ماركس وأنجلز ومن روميو وجولييت ولوريل وهاردي».

وكانت حسنة مدينة لهذا الرجل الصلب الذي جعلها سيدة تتمتع بحقوق نبيلة نظراً لأخلاقها التي كانت دائماً مصدر إعجاب من طرف جدي حيث كانت تهتم كثيراً بشؤون المنزل وهي تغسل الأغطية البيضاء ووجوه الدانتيل المطرزة بالفراشات، ثم كثيراً ما كانت تضع له كل صباح الحليب مع الخبز المحمص والمعجون بالحبة السوداء والشومر واليانسون، والمبيت حتى الفجر. ونادراً ما كانت تنام قبل أن تتأكد من استقراره في فراشه وهو يدير ظهره ويغطي رأسه.

فمن هو المدين للآخر... إذن

كان حديث جدي صميمياً وحقيقياً قال:

كان في أعماقي خوف من الحياة ورعب من المستقبل الذي يسكنني وخرية الريحان كل مرة تستعيد تلك الرائحة التي تبعث الرعب ورائحة الموت، مضت سنوات طويلة بقيت خلالها حسنة وفاطمة رفيقتين حقيقيتين في حياتي بالرغم من كل قسوتي بعض الأحيان عليهما وتغيرت طباعي كثيراً فانشغلت بالأرض والقرية ومستقبلها، وأهلها الطيبون كانوا جميعاً فقراء تجمعهم محبة فطرية تخفف من دوافعهم في الحقد والكراهية، جسداً واحداً تحت سطح واحد همّهم الوحيد الألفة والمحافظة على المتبقي، إلا أنني تمسكت بفكرة تعزيز

هذه الأخلاقيات التعاونية التي كانت سائدة آنذاك في جني المحاصيل والعمل في الأرض.

في ذلك الصيف خرجنا جميعنا للحصاد، باكراً، كان الشتاء يزحف وكانت الأراضي تموج بالخيرات بعد سنوات طويلة من القحط والمحل ولهذا جنّدتُ معظم أهل القرية لجني المحصول بينما كان ناصر في المدينة يتهيأ للتخرج من كلية الطب.

ذات يوم ونحن بأواخر أيام أيلول نجني ما تبقى من الموسم وفي الظهيرة جاءت حمدة تركض تولول وتصرخ:

الله... الله ياحجي..

لم نفهم شيئاً كانت شبه مجنونة وهي تصرخ وتقطع شعرها

ما بك

هيك..هيك... يلا... يلا

عدنا للقرية نركض، لأجد ابني محملاً في تابوت في خلفية سيارة قادمة من العاصمة نتيجة أزمة قلبية مفاجئة.

دفن ناصر ذلك اليوم تحت التراب ومعه شهادة الحقوق والطب، ووالدته مذهولة وحزينة، كاد فقده يقتل جدي ولم يستطع أي شيء منعه من الذهاب إلى البراري، يجلس وحيداً، قريباً من الساعد الغربي، عند منحدر الوادي، يتلمس جرحه الذي انفجر بالدماء والموت واستيعاب الفقد الذي فضح ضعفه وهشاشته وحجم خسارته.

ومن وقتها بقي جدي دائم الخروج من المنزل، وقلما يجلس في البيت كان ما إن تفقده تجده عند الساعد الغربي يجلس على صخرة ملساء يضع يده على خده ويراقب حلاله السارح بين الصخور وعلى ضفة الوادي السحيق، ينهبه المشهد، في العمق هناك، حيث يرتجي هدوءه ذاكرة كبرياء وقوة.

كان لا يشبه أحداً، بالرغم من كل هزائمه، ولم يشعر أبداً برغبة في المقاومة لولا آماله الكبيرة.

كان شجاعاً، وصادقاً ووفياً، يحمل على كاهله حياة البشر ومشاكلهم بالإضافة إلى فوران طموحه وأمله، كان اسمها يوماً قرية أنثى (خربة الريحان) كوطن قاهرة، وكان هناك رجال في غرور الخير، من هنا مروا وعبروا، تركوا في كهوف الذاكرة جروحاً مطمورة والكثير من التضحيات، تركوا كل شيء في خربة الريحان وخرجوا... رحلوا إلى الأبد. صمد الساعد الغربي مرات عديدة بالرغم من أنه لم يبقَ منه شيء سوى اسمه الذي منحه هذا الزهو والاعتلاء.



أحسد ذلك المساء على امتلاكه الاقتران بالألوان وهو يمنح الأشياء لونها الحقيقي، أما أنا فلا أستطيع منح اسمي وتاريخي وطموحي لقرية صغيرة، تتعذر على التحضر وربما لذلك تراني جالساً على الساعد ممدداً نظري إلى الأمام على هذا الجسر المعلق بين قلبي وروحي، على ارتفاع شاهق فوق وادٍ عميق والذي تعبره أسراب الطيور على مهل، لقد تعلمت بعد كل هذا أن أسخر من المصائب والمحن والطموح حتى، لهذا تراني متهكماً أقيس كل الحياة بعبثية مراهق لا يحكمه شيء سوى امتلاكها.

قادتني تلك الوساوس إلى الابتعاد عن القرية وأهلها وحتى بيتي، فلم تعد المضافة تفوح برائحة القهوة وأهالي القرية يسألون عني ودائماً لا يجدوني، كنت أهيم في البراري، بحثاً للأغنام عن منابت طعام لجوفها وأتلذذ بتلك اللعبة الموجعة حتى آخر حياتي.

قامت حرب الخليج الأولى في الوقت الذي بدأت جراحه تندمل

وتتوس واصبح رهين انتظار الموت أكثر من أي شيء آخر إلا أنه اعتاد ذلك من دون أية مراعاة لحالته الصحية التي بدأت تتدهور، لكنه دائماً كان يفهم بأن المبدأ أو العقيدة هي جوهر كل حياة وكل إنسان، وقد سرى هذا على كل حياته من دون استثناء يذكر، وتخلى عن الاحتماء خلف دروع تقيه الاستدعاءات المتكررة إلى مراكز الأمن للتحقيق معه حول زلات لسانه التي لا تنتهي، حيلته أنه كان شجاعاً.

ذات يوم، صباحاً حيث كان يهم لإخراج الأغنام من الحوش وهو ينادي على حسنة لمساعدته، قالت له:

تعال... في سيارة واقفة بباب البيت وفيها رجال مسلحون، سأل أحدهم عن منزلك ويريد أن يقابلك. ترك جدي الحلال وخرج وهو يرفع ثوبه بأسنانه، نفض عن يديه الغبار، وارتدى لباسه بسرعة وخرج.

أهلاً وسهلاً... أهلاً وسهلاً تفضلوا

من عالباب

لا يا حجي تعال معنا مشوار صغير

طيب... اشربوا قهوة وبعدين نذهب

قهوتك مشروبة حجي وأنت معروف

أخرج معه مصب القهوة ومن نافذة السيارة قدم لهم القهوة المرة ثم عاد إليهم، صعد إلى السيارة وذهبوا.

في مركز التحقيق قابله رجل شاب ملتح.

إيه حجي سمعنا عنك إنو لسانك طويل بدو قطع.

غضب جدي ورفع عكازه في وجه المحقق.

الله يلعن هالتربية... هيك بيعاملوا الناس ما بتعرفوا تميزوا بين

الصالح والطالح، الوطني من الرجعي، إلي معكم من إلي عليكم.

اهدأ يا حجي عم نمزح معك

شو مفكرني قدك لحتى تمزح معي، أنا أكبر من والدك وعليك احترامي.. وين معلمك

دخل رجل سمين على الضجة وهو يحاول تهدئة جدي ويقبل رأسه:

أنت أوسع من هيك حجي وصدرك رحب

ما في صبر لهيك معاملة

ادخلوه إلى ضابط في الأربعين من عمره ويبدو عليه الحكمة والتفهم.

تفضل حجي... اجلس... ماذا تشرب؟

لا أريد أن أشرب شيئاً.

ضغط على جرس، دخل مستخدم.

هات شاياً للحجي وكأس ماء.

أي حجي أنت مع مين؟

أنا مع....؟!

«قدّم لي أسئلة وأجبت عنها، أسئلة عادية إلا أنها لا تحمل صيغ الاتهام...

اعتذر الضابط وودعني إلى باب مكتبه وهو يقدم الاعتذار وقال الله معك يا حجي.

شعرت على الدوام بتلك الحرية التي بنت لي قوتي وضعفي، لم أنتمِ لأية منظمة أو حزب أو جمعية بقيت حراً، بما أحمل وأعتقد مذ كنت في الحادية عشرة من عمري عندما توليت كل مسؤولياتي في الحياة، ومن الصعب فيما بعد القول إذا كان كل شيء قد جرى على هذا

النحو أم أن الحياة قد تغيرت، لكنني كنت سعيداً فيما أعتقد وأؤمن، صحيح أن القيم تغيرتْ والحياة بَدأت تأخذ أشكالاً مادية وقسوة وازدادت الحاجة للكسب والنهب والاحتيال، إلا أنني بقيت أعتقد على الأقل من وجهة نظري بأن الحرية هي جوهر الحياة؛ ولهذا كرست كل ما أملك لخدمة أولاد بلدي والقرية التي سرحتُ على مصاطبها وسطوحها صيفاً وشتاءً، أنتظر ديس الأعشاب التي نبتت على سطوحها وفوق مداخنها، بقيت على هذه الحال، وبوسعي الآن فهم الصورة التي أردت إعطاءها للآخرين وتقديمها للجميع، حيث لم يكن الفقر مأساة قريتي ولا الجهل، لأنهما لم يمحيا طيبة أهلها وحبهم لبعضهم بعضاً، على كلٍّ ليس هناك ما هو منجز في الحياة. فالسلوك، عادة أمر يمكنه أن يُختبر، فهو ليس أخلاقاً بالمعنى الكامل، ولهذا مازلت أنظر إلى الأمور بهذه الطريقة وقلما أجبر عواطفي على تبني شيء لا ينسجم مع تصوراتي عن خربة الريحان التي تربيت وعشت تحت أقمارها، لكن ما حصل مؤخراً لهذه القرية هو الذي أجبرني على العزلة واختيار مضافتي مأوىً أخيراً، ولهذا كنت دائماً أشعر بالقلق والخوف على مستقبل القرية وأهلها من الضياع وتبدل قيمهم وأخلاقهم».

عدّل جدي من جلسته وأخذ نفساً عميقاً وزلت عيناه في بركة الظلام الذي ضلْ وهو ينصهر تحت ذكرياته المجنونة التي هدته وتابع:

«كنا في أوج الحملات الانتخابية، التي رتبها المجلس البلدي للقرى المجاورة في مركز المنطقة، وكان على جميع الأحزاب ترشيح ممثليهم إلى المجلس البلدي وبقينا فترة ونحن نتشاور للمشاركة والترشيح بكافة الانتماءات السياسية والفكرية إلاّ أن الاجتماع الأخير والتهديد والوعيد الذي حصل من قبل بعض الاتجاهات الحزبية

قضى على آمالنا في الإصلاح، وبدأ الخراب يشق طريقه إلى القرية، وعلى أثر ذلك بدأ رجال القرية يُخطفون واحداً تلو الآخر، ويودعون السجون.

كان الصيف قد لملم أطرافه باكراً، وبدأ الجو يميل إلى البرودة. دبّ الرعب والخوف وخيم على القرية، تيتم أطفال كثر وشُرِّدتْ عوائلُ لم أستطع ضبط هذا الخراب الزاحف، هكذا وجدت نفسي في وضع امتحانيّ صعب، في الوقت الذي كنا فيه نجتمع ونتشاور لجمع مبالغ من الفلاحين بعد المواسم لبناء مدرسة القرية وخزان المياه، بدأت المواسم تغيب وتتحسر نتيجة الجفاف المتلاحق في السنوات الأخيرة.

ذات يوم في الفجر وعلى قرع الباب الواقي لفناء الدار استيقظنا وخرجنا على وجوهنا نركض على أصوات وضجة، كان أبو أكرم الميداني واقفاً بين رجاله بعد أن هبط سيارة الشحن الكبيرة، في الخمسين من عمره، أشيبَ الشعر، مكتنزاً باللحم خدوده حمراء يكاد الدم يقطر منها، عيناه خضراوان لكنه قصير بعض الشيء ومتكرّش، يحمل بيده اليمنى عكازاً بنيُّ اللون ملمعاً جيداً، مغطى بجلد مطرز ببقع فضية اللون وأخرى زرقاء، قادماً من المدينة لتحصيل ديونه.

خرج جدي وجدتي يركضون!

أهلاً أهلاً أبو كرم تفضل... خير

خير... من أين يأتي الخير؟

الله كريم يا أبو أكرم... اليوم الموسم بيطلع ومنعطيك كل الدين ونجمع الباقي من سكان القرية.

أي شو هالحكي يا حجي، كل مرة بتقول نفس الحكي وبيطلع

الموسم وما بيسد ربع الدين اللي عليك وكل مرة بتيجي لعندي ع الشام وبتقلي السنة الموسم أحسن وبصدقك وبعطيك كل شيء بدك إياه.

تفضل ادخل... الحساب عند ربك

شو عاملين فطور؟

المواسم الراحلة... الأراضي الواسعة، غبار متراكم على جباه الفلاحين الراكنين إلى فيافي غائرة في دهاليز سريهم العطش إلى الامتلاء، محاصيلهم المحصّلة إلى الكروش الممتلئة، المورّدة إلى نفوس غيرهم، عرقهم الذابل والجاف على لحاهم والماطر على نحورهم، ينحدر شلالات حزن وبكاء، بذارهم النابت، ريحانة المزابل، ومواجع الفؤوس الحانية، سنواتهم الراحلة إلى دلف الأيام التي توجت غيابهم بالصهيل وعيونهم باللهاث والامتلاء، بطونهم فارغة والشتاء على الأبواب، أزمنتهم محك محن وأبو كرم مخزن لا يمتلئ ولا يشبع، وفوائده تتضاعف، وذنوبنا تكبر.

جدتي تلهيه بالخضيض وعيناه ترعيان الظهور المحنية على غلال العدس والحمص والقمح والشعير والذرة والسمسم.

شو يا حجة... شو ها اللبن السنة مريق.

الغنم والمعزة شوّلت يا أبو أكرم.

بقيت خربة الريحان سبع سنوات تتثاءب تحت وطأة السماسرة والتجار والاستغلال وترزح بالجهل والخراب وانشقاق أهلها نتيجة التنظيمات السياسية والاختلاف فيما بينها والذي بدل طبيعتهم بالحذر والحقد والكراهية، أصبحت أفكارهم أهم من الناس وليست لأجلهم.

عندما تحركت سيارة (أبو أكرم) مساءً محملة بكل مواسم

القرية، انطوى ذلك اليوم على سبع سنوات من الجفاف والقحط والعوز، ولا من مجيب أو عابر سبيل يتذكر تلك القرية المرمية تحت الترع، في خاصرة الوادي المار من قناطر فرعون من اتجاه الشرق، تقطعها سكة الحديد المارة غرباً من بلاد الشام إلى الحجاز ومكة المكرمة، مركولة هناك تحت ذلك الامتداد الواسع لأرض فلسطين وعينتاب وطبريا... حدودها الليل ومرقبها ذلك الدخان المتصاعد وهي تَسيح في لجج البراري، وكهوف الموت والجوع، حتى لا تمحو حدودها جدرانها التي هشمتها الأبقار والحمير والماعز وهي تنبش ما تبقى من أعواد القش المجبولة مع الطين.

عندما أصيب العالم باللهاث باتت القرية تسترعي مهالك الموت والفقر المغمس بالجهل والصمت وقلة الحيلة، ورعت السطوح المشوشبة بالوميض مساكن الحمام والعصافير حتى لا تزورها الريح فتسوح في ذلك الظلام الذي سحق أرواحنا بكل هذه القسوة والامتحان، وسيِّجت الكروم بالذرة والحمير.

بكت جدتي إلى آخر الليل وهي تشتم أبا أكرم، نادبة حظها ونصيبها من هذه الدنيا الرخيصة.

قالت جدتي للحاضرين وهي تضرب على ركبتيها:

شو بدو أبو أكرم بكل هالحبوب... لوين بروح فيها والناس متهاكلون على فراغهم وفزعهم، يحتذون نعالاً اهترأت من سعير البرد والأرض البور وراء الدواب، والنمل أسراب تجيء وتروح فارغة تتآكلها أثلام الأرض المتشققة على خطوط القمح، أما مواعيد الأطفال فقد ضاعت يتكتنفها أحلام العيد والهدايا التي لا تتجاوز حذاءً أو بنطالاً.



ذات يوم كتبت لسارة وهي في السويد قلت لها:

أمسحُ عن وجهك غبار البيادر واصفرار المساء وأعزف لكِ ناي الرجوع مع العصافير، وأقبل جبينك بمدامع الكحل.

الحياة هنا ليست غريبة عنك!

ونحن نُحْسِنُ الحب!

قالت لي بعدها: ليتني معك هناك على الساعد الغربي مصائرنا مشتركة وهدفنا واحد، أدع قدمي تجر على الأرض وأنا أودع قطار الأغنام والماعز على ظهر حمار، ونسرق من غلالكم ونبيعه، نبيعه لمن... ما اسم هذه التي تشتري الحبوب منك وتبيعك كتب، لقد نسيت اسمها علماً أنك تحدثت لي عنها كثيراً، اعذرني فالذاكرة هنا بليدة كالطقس الجليدي، بالكمبيوتر فقط نتذكر وأنا أشتاق لك من كل قلبي.

سارة - استوكهولم ١٩٨٨

قبل أن تسافر جلسنا سويةً على الساعد الغربي أثناء زيارتنا الأولى لخربة الريحان، قدتها إلى القمة وبحثت في كل الأركان عن مكان منعزل في منحدر الوادي السحيق بينما خربة الريحان تجثم في ساعات الظهيرة تحت نير القهر والفقر، وتحت لهيب شمس آب الحارقة والموجعة تلذذنا باستجرار خيبات بعضنا بعضاً، حدثتني عن الغربة والحنين، حدثتها عن الفقر والجوع قالت:

هي ذي أشرعة القلب يا سعيد.

وها أنذا أحمل بيديّ قنابل موقوتة قد تنفجر في أية لحظة وصورة لك سأحتفظ بها دائماً، وها هي ذي أوجاعك النسخة الوحيدة عن أوجاعي، عباراتنا لا تنتهي.

كيف أنت يا سارة؟

كيف أنت يا سعيد؟

نتدثر بالأوجاع!

موجعة تلك الغربة، ولم أعد أنتمي لشيء، يبدو كل شيء بليداً وقاسياً، أحس أنني أكاد أختنق، شيء يضغط على صدري يكاد يخلع روحي، وهو يهرس كبريائي.

بدت حزينة يومها، على غير عادتها تحلم بأوقات أكثر أمناً وسلاماً.

من أين يا سارة؟

من قوتنا... من جراحنا يا سعيد، في كل يوم يمر أقضيه هنا، أحس أنني أزداد غربة حتى عن نفسي، لقد فقدت الطمأنينة ولم يعد

هناك شيء يحمي روحي من الاختناق غير السفر.

السفر لا يحل مشكلة.

قد لا يحل وقد يزيدها تعقيداً على الأقل هنا غربة وهناك غربة، هنا غربة وأنت عاتب، هناك غربة ولا أحد له علاقة أو له سبب في غربتك، حين نكبر سنعترف بهذا، لا داعي للمجاملات والتستر على أخطائنا، وهذه الأفكار التي نحملها، ستكون يوماً ضدنا، لهذا علينا التخلص منها قبل فوات الأوان، أما الفكرة التي لا أستطيع أن أتخلى عنها هي وطني، أهلي، مستقبلي وأبي وأمي الذين أراهم يتذمرون أمامي وأنا لا أستطيع فعل شيء، بالله عليك يا سعيد لو كنت مكاني ماذا تفعل؟

امنحيني يا سارة فرصة لأن نصنع شيئاً.

وما الشيء الذي نصنعه، هل زواجنا أو حبنا يبني أوطاناً، هل يعيد لي بيتي وظل شجرتي وشمسي التي لم أرها قط، أنت رومانسي لازلت مسكوناً بحزن قريتك وهمومها، تعتقد كل شيء ينتهي هنا.

أما أنا فلا!

ضحكت وهي تكتشف إلى أي مدى تقودها هواجسها.

كانت على حافة الجنون.

يومها قفزت كالممسوسة ونحن نتلمس أحدنا الآخر مشبعين بالفاجعة، بينما ننحدر أسفل الوادي وكل منا غارق في أفكاره وأحزانه وآلامه، يستجر المتأخر منها.

لماذا كل هذا الحزن.. لماذا نتلذذ بأحزاننا، ألا يوجد شيء في هذا العالم يدعو للسرور والضحك؟.

قولي لنفسك:

كنت أشعر بالسلوى بالقرب منها، وشذى عوائها ينتحب

بملامستها أغصان الديس التي تصحو تحت ملامساتنا التي تتلصص من العيون في الغدران.

جلسنا على الحافة.

لم نتحرك وقتها، مضغت أعشاب بعمر اليوم ثم لاكتها وقذفتها في الهواء، كانت تعبث.

نظرت إليها، اخترقت ضميرها، سحبتها بكل قوتي فتشت عن فمها والشمس تغشي على وجهي. قبلتها وهي تئن وتصرخ، ولأن ذاكرة اللحم هشة استجدينا حرمانها منذ عصور مديدة، كل منا يغرف من خابية الروح، أوانينا فارغة نسينا أنفسنا والأعشاب تنمو، كنا متقدين ومنفجرين ثم فجأة انتفضت، ركضت، سرحت في الأدياس وهي تعبر قطعان الريح والشمس والحياة، تعبر، تطوح بالقيم والأخلاق، ونظري لا ينحدر عن ردفيها المكتنزين، كانت حزينة ومعطوبة، عيناها حادتان كالملح، مغمستان بزيت القطران ودموع الثكالى ومن دون أن تعير اهتماماً، أو تغير ملامحها الغائمة سوى تلك النظرة التي عاشرتها منذ قدومي إلى دمشق، ومع ابتسامتها المريرة، لوحت للريح وهي تركض، باتجاه الشمس، وفجأة أخذت تركض بسرعة، بحرارة، تتعثر، ثم تتهاوى وهي تنحدر كصلال صخرية انهمرت باتجاه الرعف السحيق لشبهة الاشتهاء ولاحتواء الأراضي لموتانا ورعش الاهتزاز والطمي المتدثر بأحلامنا، تركض كأن أفعى لسعتها، تتحرك مع حركة السم في جسدها وفجأة سقطت تحت الشمس، تمددت فارشة يديها وقدميها وصدرها للسماء.

وأنا أراقبها!

وصلني صوتها... أنين مشحون بنشيج حاد، يتحدى ذهولنا وركود مشاعرنا وأخلاقنا النتنة وتقاليد أرحامنا البالية، وهي توقظ حشيش

الأشـواك الموحشـة ودبـابيس لسـان الثـور والجـزل، فرشـت صـدرها وأخرجت حلمتيها، عركتهمـا بـالتراب، حتـى انتصبتا وراحت تـرش الأرض بحليب أصفرَ داكناً، وتنـوح وتئن، وتمـوج، ولم أرَ سـوى تلك الأنفاس التي كانت تتصاعد كلما ازداد احتكـاك ثدييها بـالأرض وفجأة اهتزت و... اهتزت بسرعة، بحرارة، بشوق، صعوداً، هبوطاً ثم فجأة... سكنت... ذابت... تلاشت ولم أعد أرى غير بقايا ثوبهـا الـذي حركته نسمات الظهيرة أسفل الـوادي وخصـلات شـعرها الـتي نامـت على وجنتيها القمحيتين.

في الليلة نفسها كتبتُ في مفكرتي

«... مشتبك هو العالم ومفتت... مشتبك ومبعثـر ونحـن ذرات رمـل... حصى تحت أقدام خزائن قوتنا وموتنا ولهيب أمنياتنا وسياط ذكرياتنا وسأظل طاهراً تجاه أفكاري حول تلك الاهتزازات والامتطاءات التي ولّدتها تلك الليونة أو المجامعة مع الأرض تحت شمس الله الساقطة في أرض بكر.

وسارة دروب تسير نحو الظلال والهاوية.

لو قلت لسـارة يومهـا مليـون مـرة: إنـني مفتـت مـن الـداخل لرجفـت وتمضي... من دون أن تسأل بعد أن حاولت إخفاء صدرها تحت عباءتها البنية، ولن تجيب ففي داخلها جرح أصم، لئلا يختـزل، لئلا يخـون، لئلا يموت كانت جامدة تقف على حافة الجنون وذراعاها متقاطعتان على صدرها، اقتربت منها حاولت إحاطة خصرها بكلتا يدي، وشم عطرها وإيماءات الجسد الممرغ بالتراب، خفت من ذلك وبقيت مرتعشاً أهذي تحت نواحها الذي لم ينقطع وأنا أودعها وهي عائدة إلى دمشق».


٨٢

الدفتر الأزرق



كـان نـادر يسـتمع إلى جـدي فيمـا نحـن قبالتـه، وبـدا علـى نـادر الكثير من الاضـطراب والتعـاطف مـع جـدي، وهـو يـروي قصـته، لم يكن مكترثاً بالمتعة أو الإثارة التي جئنا من أجلها بقدر ما تحول همّه إلى تلك المصـائر الجنونيـة والعبثيـة لأقـدارنا علـى هـذا النحـو المخيـف والمفزع، علماً أننا خصصنا هذه الزيارة لسماع حكاية جدي من أجل كتابة رواية مشتركة عن خربـة الريحـان ولهـذا كـان علـى نـادر بـين الحين والآخر أن يسجل بعض الملاحظات ضمن السيرة حتـى لا تضـيع وتنسى.

على دفتره الأزرق سجل بقلمه ملاحظاته، بيديه المشبعتين بالمراهم والأدوية نتيجة الحساسية الدموية التي أقعدته أياماً طويلة في الفراش وهـو يتحسـس ألمهـا، هـكـذا اعتـذر لـي ذات يـوم عـن متابعـة كتابـة الرواية التي أكملتها بمفردي قال:

لا... الكتابة لا تتأتى مع الدواء، هكذا كانت تجربتي، فالدواء أيما دواء يشح الروح ويمحلها والكتابة هي بالأساس انبثاق وجداني، حيث الـروح الـتي طـوت في جنباتهـا الأزمـان، والحكايـات في الوجـوه والمشاهد العابرة والمنسية، تحتـاج كـي تعيـد رسـم آثـار ذلـك بهـا إلى العويل، الذي هو مزيج من نبوض راكضة ودفقات حب مجنونة وحنين إلى مـزيج مـن أولاد وحـارات وقـرى نائيـة وأحـزان وخيبـات وحـارات وعواصم ومدن وأفياء وأوهـام أيضـاً وخيـالات وأحـلام يقظـة، نعم يـا سعيد إن الـدواء يحيـل كـل ذلـك إلى العاديـة، والكتابـة هـي أساسـاً إزاحة العادية والروتين والضحالة عن الأشياء، أو أنها على الأقل تُدخل علـى هـذه العاديـة، أشـياء كـبرى، أقصـد أشـياء متطوعـة غـير

ممسوكة، تلهث خلف ذاكرتنا المشبعة بالضجيج والتساؤلات والصور المتشابكة كهذا العالم المزيف أشياء معربدة، حيث الطيش أيها الصديق هو بالأساس خصلة النبلاء، أولئك المسكونون كجدك برنين فادح جبار، ومع ذلك فالدواء يسحق روحي ألا تتذكر قصيدة الشاعر مظفر النواب. يقول:

كنت آخذ هذا المسكّن في الليل.

حتى تهرأ جسمي

وصار المسكّن في حاجة للمسكّن

وها أنذا تحت الشمس يصطليني لهيبها الذي لا يرحم وأنا جالس على الشارع أبيع الكتب المستعملة لأعود ليلاً إلى فراشي ممدداً كجثة لا تقوَ على الضحك أو التفكير حتى، والآن يا سعيد إذا كنت تريد أن تكتب عن جدك أريد أن أكتب عن المرض والغربة والتشرد والريح والشمس والحب، لا عن جدك، بل عن المرض بوصفه تجسيداً للهشاشة والضعف، هذه الهشاشة التي هي بالأساس الأس الكوني الكامن فينا، كمصيدة لضعفنا واهتراء حواسنا ولا أعرف أبداً كيف يرد البشر عنهم هذا الضعف، أو عن سلوكهم، فمنهم من يذهب إلى الدعاء واستجداء الموت كجدك ومنهم من يلوم شبح الحياة. إلا أنني يا سعيد سأظل أميناً على قصة جدك وتلك العبارة الأخيرة التي قالها يوم جلسنا نستمع إليه، كان ذلك قبل وفاته بفترة قصيرة حيث لفظ كلمته الأخيرة وصاحبتها تلك التنهيدة المغرورقة بالحزن والدموع كئيبة ومستسلمة كعمره".

تابع جدي:

استطاع عصرنا، عصر التفاؤل والأحلام أن يحوّل هذه الصيغ المرعبة إلى ترانيم فرح وأقواس نصر، ربما ستقولون ضد من كان هذا النضال، لا شك أن الحب والخير والعدل والسعادة كلها أشياء جميلة لخدمة البشرية لكن كيف تبني ذلك من جهل وتخلف، إن جهدك قد يضيع، جهدك النبيل، نعم سيضيع سدىً ولا يمكن فيما بعد تعويضه أو بذله من جديد، لأننا فيما بعد سنجد أنفسنا قابعين بلا أمل، بلا كبرياء يذكر، ويكون العمر قد ولى إلى غير رجعة. يؤسفني جداً الآن وأن أقول لك هذا الكلام، لأن التنظيمات السياسية قضت فجأة على أحلامنا، فبالإضافة إلى الفقر والجهل والتخلف جاءت الأحزاب والتنظيمات لتؤطر فقرنا وجهلنا وتخلفنا وتفرق بيننا، مستوردة، يدافعون عنها بضحالة وبجهل، يحدث أن نؤمن بذلك ونعتقد بأن ذلك أزلي لكن النتائج غير ذلك فالجهل والتخلف بمضمونه زاد، وبشكله استوى، ولم يبقَ لي سوى هاتين السيدتين الطيبتين وهما الآن تسمحان لي وبشكل دائم بممارسة غضبي وقوتي وضعفي ونزقي أمامهما.

انهمكت جدتي في محو ماضيها التعس مع جدي منذ أن تزوجها وهي في الثالثة والعشرين من عمرها، غير مخططة لذلك لولا مرض جدي المتتالي والذي ظل يساكنه فترة طويلة. وهكذا استجابت جدتي إلى ضعفه وسنين عمرها ومعاناتها وهي مزينة بفيض من المجوهرات وأقمشة وفيرة وعمامة سوداء تبدد بها مظهر الشيخوخة وتخفي ما تبقى من أحزانها بدموعها التي تذرفها على ولدها الذي اختطفه القدر وهو في ريعان شبابه، بسبب أو بدون سبب، أما زوجته الثانية حسنة،

كان الخوف جزءاً من حياتها وهي بكامل هيبتها وقوتها فما إن تسمع جدي يصرخ ويشتم حتى ترتعد من الخوف وتلوذ احتماءً من غضبه ونزقه.

لكنها عرفت أخيراً وبعد سنوات طويلة وبعد إصرار جدي الذي كان يجبرها على فهم ما يقول، إلى أن أدركت فيما بعد بكثير من الصبر والحكمة والتحمل هسيس روحه وشغفه للعلم والمعرفة وبناء قرية تعاونية أنموذجية. فشل عن رفع الظلم والقهر والتخلف والجهل عن أبنائها.

كنت دائم الخوف على هاتين السيدتين العجوزين من غضب جدي الذي كان يفرغ كل غضبه على رؤوسهما وهو يحمل مذياعه ويسمع الأخبار.

وهكذا بقيت علاقتي بهما والتي خصني بها القدر، بقدر ما خصهما من ألم وعذاب.

في قاع الدار الفسيحة في بيت جدي وعلى أصوات الديكة تستيقظان ولم يكن هناك ما يسمح لهما بالنوم لفترة أطول خاصة عندما يستيقظ جدي، ليدخل بسرواله الأبيض حاسر الرأس ويبدأ بالصراخ منذ ساعات الفجر الأولى وهو يخرج قطعانه وحصانه إلى الماء والرعي، وهكذا تفتح الأبواب وتخرج منها سيدتان عجوزان تهبطان أدراجاً متوازية، تصل إلى قاع الدار الواسعة، ويبدأ العمل؛ فمن تربية الأغنام والدجاج وزراعة المواسم وجني الحبوب وتحضير الطعام للفلاحين الذين يعملون في السهول البعيدة، وسايس الخيل الذي يبقى طيلة يومه خلف الدواب وهي تصل وتطرد القراد عن مؤخرتها، والرعاة العائدين بعد عناء يوم طويل في البحث عن جذور الجزل ولسان الثور والخبيزة البرية وأصحاب البيت وجلب الأبقار والأغنام والماعز

وإطعام القطط المتكرشة في الحوش والدجاج والحمام والحبش، وكذلك الخبز وتجفيف الخضار الفائض عن الحاجة اليومية وتقديد البامية والمخلل والنعنع وردّ الذوبة، وقطف أوراق الكينا للاستحمام بالإضافة إلى الغسيل والجلي والكنس، كل هذا بالإضافة إلى استقبال الزوار وجدي دائم اللوم والاعتراض هكذا تبدأ أيامهم وتنتهي.

وبينما كانت فاطمة تعيد غزل خيوط الصوف مساءً وهي تجلس مع حسنة ضرتها أمام جدي في المضافة، كانت هي الأخرى تقدم العشاء والدواء لجدي الذي أمضى معظم أيامه في الفراش يعاني من أوجاع وأمراض كثيرة، بكل هذا العناء لكن ذلك قلما يخطف من عينيها ذلك الحنان الذي اعتادته وهي تقدم بكل طيبة خاطر، ومن يومها إلى الآن تتمنى له الشفاء وهي ترفع يديها إلى السماء.

الله يشفيك يا أبو ناصر

كان في صوته شيء من الحزن، من المرارة، وكثير من الاختناق وهو يتكور أمام فواصل عمره الذي انقضى في السهول والوديان وفراش الموت وتابع:

«كنت أدرك دائماً أن القيم شيء لا يتجزأ، أو لم أكن أتحمل فكرة تجزئتها على هذا النحو المخيف في تبدد القيم بحجة انسجامها مع روح العصر والواقع.

أما الآن وبعدما انتهى كل شيء، تراني ما الذي أفعله بهذه القيم وعمري لم يعد يسمح لي، وأنا أتساءل عن الشيء نفسه الذي أصبح مجرداً وخاوياً ومريضاً، أيمكن أن أستطيع ترميم ذلك الحاضر وأنا أتحدث عنه الآن.

وبينما نبتت الأعشاب السامة والطحالب على سطوحها وبين

جدرانها تُرى ما الذي سنفعله إزاء ذلك؟ هكذا كانت خربة الريحان، جسداً واحداً، كنا نتقاسم كل شيء، ليس لأنه لم يكن هناك ما يستحق القسمة، بل لأن الأشياء المشتركة كانت كافية لإلغاء فكرة القسمة.

عشنا طويلاً في ألفة الأيام، قضيناها ونحن مسكونون بالأمل، بينما صوب أعيننا حدود الساعد الغربي المار من هناك والذي حررنا صحوه المبكر والمباغت ولم يكن في النية أي ضجره.

ظل جدي يتحدث ويهذي عن خربة الريحان بينما عجوزاه تقبعان تحت قدميه حسنة تغزل الصوف وفاطمة تلتهم حبات مسبحتها في ذكر الله والدعاء الذي لا ينتهي، بينما دموعها تبلل خديها وهي تتذكر ابنها الوحيد.

النعاس يداهم جدي وهو يحاول إدارة قرص المذياع لسماع الأخبار

نام يا حجي.

أغطيك.

يدير ظهره ووجهه إلى الحائط ويترك المذياع من يديه وينام

تطفئ حسنة ضوء السراج وتغلق الغرفة وتخرج للنوم هي وفاطمة.

تدخلان في نفق طويل بالعتمة، يفضي بهما إلى قاع الدار في الصدر وعلى الطرفين درجان حجريان يفضي كل منهما إلى غرفة، رائحة أجسادهما رائحة الغابات، لكل واحدة منهما شذى العبير وخريف العمر وهما تتسلقان الأدراج الوعرة، تصعد فاطمة على درج قاسٍ وحاد ارتفاعه يفضي إلى باب الغرفة الذي يفتح بابها للخارج بينما تصعد حسنة على درج قصير يفضي إلى مصطبة صغيرة ثم إلى باب يفضي للداخل، تصعدان الأدراج وهن تتسلقان أروقة ماء البحر، لذلك العبق

المنفلت والذي دائماً يداهم أحلامهن في غرفهما المظلمة وهما تحتفظان بذلك الشعور لدبيب أجسادهما الواهنة عبر أدراج، وتحت هذا الليل الفضولي في خربة الريحان، وهما تحملان مجرات حكايا قديمة لحياتهما، هناك علاقة سبب وتأثير في هذه الفوضى التي دائماً كانت تخر في نفوس هؤلاء الناس الطيبين وتترك بقع داكنة السواد بالطريقة نفسها التي صبغت حياتهما وأصبح جوهرها النجاة من هذا الليل الطويل والممل، والعين لا تلتقط أجراس الصعود، سوى ممشى أقدام أتعبها الديس والركض وراء الأغنام والماعز وقطف الحبوب، فيما بعد بدأت باكتشاف ذلك الماضي وهُنَّ يتسلَّقنَ أجران الحياة وأسرار غرفهما الباردة كباقي نساء خربة الريحان، تتقاسمان الهموم والمواويل آخر الليل وبتفحص منزوٍ لتلك العلائق التي كرست ذات يوم هواجس المرارة والسمل، عندئذ وصلتا إلى حافة الصحو ومراتب الدخول وهما تتهاويان بأصواتهما.

وصلتي

منصل

فاطمة التي هوت إلى قاع الدار، من دون أن تئن بارتطامها سوى ضجيج الجسد الذي تحطم، أو تصرخ وهي تتحطم من أثر السقوط، ركضت حسنة، أسندتها إلى الجدار، وضمتها إلى صدرها وهي تبكي بخفوت الحنين وحنوه، لم يكن بمقدور أي شيء في هذا العالم تصور أو رصد ذلك الرهيب الذي يقبض قلبك وأنت ترى ذلك الانهيار الصمتي يتقهقر على عتبات العمر لمصائر منفلتة من السياق الطبيعي لحياة البشر والذي هده الركون والاستماع لمواويل حزينة غائرة في النفوس المتوقدة، هناك بالروح ذاتها، في ذلك الحبس الليلي لأناس ولدوا وماتوا فجأة، يتزايد فضولك تجاه أسئلة تعبث بكيانك

وتبدد قدرتك على الحلم والطموح وتعزز اليأس وأنت تبتلع محيطات صهيلك، ظلت تبكي وهي تحاول لملمتها، بينما فاطمة كانت تمور تحت زمهرير الألم الذي عصف بها وفتت عظامها، بدأت تنشج وهي تضطرم تحت نيران الجروح، واشتد نشيجها وعلا، حين دخل جدي عليهما يركض مرتدياً سرواله الأبيض، حاسر الرأس.

ما بكما، ما بها فاطمة؟

سقطت عن الدرج، كان لازم تنام بهاي الغرفة، الدرج سيء وما بينطلع.

مو وقتك! قالت حسنة؟!

يصرخ... يتفادى سكون الليل، من دون افتراضات مسبقة، كان ينقاد لبديهته. يلقي بنفسه عليها وهو يضربها ثم يبكي في هذا الليل مثلما هم الآن، متعانقون ثلاثتهم محبوسون في ذلك الأسر البيتي بلا أولاد غير أصوات الدواب والبقر والحمير والماعز والكلاب، تحيطهم جدران سميكة وعالية من الحجر البازلتي الأسود والطين، تعبق رائحة الطين والقرميد المبلل ولم تكن ثمة أفكار تردعهم عن البكاء الذي تحول إلى نشيج وفيما بعد إلى ندب حولته الأمطار في جريانها إلى خرير بكائهم المر والمفجع.



كنت أروي هذه القصة لنادر ونحن نتقاسم الليل والطريق، نستدرج أرواحنا الحدّاءة، نفتش عن بار أو مقهى ليلي يستقبل حطام أمنياتنا وعويلنا في ليل أيلول البارد ولأننا كنا على حافة الانفجار.

همس نادر بأذني:

هل تعلم أنني جائع، منذ يومين لم أتذوق الطعام دعنا نمر على أقرب مطعم نأخذ سندويش ثم نتصعلك في هذا الليل، هل تعرف؟ مرات أحس أن مشروع كتابتنا لرواية واحدة مسألة متعبة ومعقدة وليس من السهل إنجازها بتلك التهويمات التي تعبرك وتشق وجدانك لتفضح فيما بعد أسرارهم وتلقيها في الريح على أوجاع الآخرين إننا لسنا بحاجة إلى البؤس وتراكم الحزن بقدر ما نحتاج إلى طاقات إنسانية مليئة بالفرح والحياة ولهذا قلت لك منذ أيام ونحن نجلس على الرصيف لسور المتحف أن جوهر هؤلاء الناس يجب أن يتكشف بشكل جلي حين يملكون فضاءً وظروفاً جيدة لأن يمارسوها، وإلا سوف يموتون وفي صدورهم طاقات الحياة وفرحها.

باليوم نفسه مَر أصدقاء كثر وهم يلقون على نحو عابرٍ وكسولٍ أوجاعهم وهمومهم ثم يقلّبون في الكتب المهترئة، والتي لا تعرف بيد من وقعت من قبل، لتعيش في منازل آخرين غير منازلها الأولى، ومع ذلك تبقى عطرة ومليئة بكنوز المعرفة والعلم، على حدود الليل مضينا نأكل سندويش شاورما وكانت هذه (الأكلة) جديدةً على بلادنا وهي عبارة عن لحم فروج مشوي على شواية عمودية تؤكل بطرق مختلفة، قلت لي يومها لذيذةٌ هذه الأكلة، قلت لك لا أستطيع أن أتناولها دائماً أشعر أنها غير صحية، تحدثت لي يومها عن صديقك الشاعر وأنت تشعر بمرارة الفقد وأعتقد أن ذلك من شيمك، تركت

الكلمات على محياك حزناً شفيفاً وأنت تكمل قصتك عنه قلت:

ذات شتاء تقابلنا في مقهى الروضة بدمشق ونحن نحتسي الشاي وندخن قلت له ما يشبه العتب واللوم بالوقت نفسه، إننا شركاء في هذه الحياة لأن أشياء كثيرة تجمع مصائرنا على نحو إشكالي إلا أنني أشعر أنك حيادي وسلبي تجاه كل شيء، لدرجةٍ أسأل نفسي هل تكتب الشعر؟، وأعتقد أن صداقتنا ستنتهي فجأة لأننا على مفترق مشاعر وضمائر قلتها وانسحبت

خرجت من المقهى وأنا أشعر بالندم على ما قلته وندم على مالا أقلْه لأن أشياء كثيرة كان يجب أن ألقيها وأخرج.

والآن وأنا أكتب هذه الرواية أتذكر بذلك الإيحاء وهو ينفصل عني، حيث بقيت مجموعة كبيرة من الصور المتراكمة والتي حاولت أن أمسح عنها الغبار المتراكم إلا أن هناك صمتاً سحيقاً يفصل بيني وبينها كهلام لزج ودبق في أكوان فراغية خارج مدار الحياة والكون تستند كلها إلى تلك الصورة التي بدأتها عن جدي، وهو يختبئ في أطراف الوديان السحيقة وهو يزحف لعبور الساعد الغربي الذي ظل منذ عام ١٩٤٨ غصة في حلقه، فما الحاجة الآن إلى روايتها، إلا أنني أشعر أن هناك رغبة في وصيته، وآمالاً لسارة التي ظلت تمعن النظر طويلاً في ذلك الساعد عندما زارت خربة الريحان مرة وحيدة ذات يوم حدث ذلك بعد أن تعرفت إليها في دمشق بفترة قصيرة وأخبرتها عن جدي الذي كان يعوزه فقط أن تتحول عكازه إلى بارودة ليفجر العالم.

انحدرنا باتجاه جسر فكتوريا، دعوتني لشرب الشاي في مقهى الهافانا، وكانت الساعة تقريباً تقترب من الثانية عشرة وكأنك لا تريد أن نذهب، تود لو تبقى في الشوارع ساهماً.

في أوقات متباعدة يا نادر تقتحم سارة كياني، تهدد حياتي، ولكن ذلك لم يعد يؤلمني بقدر ما يشعرني بذلك الفقد الرهيب لها وهي تلتحف آلامها الآن في مدن بعيدة وتلهث وراء آمالها وأمنياتها وضياعها.

آخر رسالة بعثت بها كتبت لي:

تركت لديك قبل سفري في الملحق على الباب لعبة صغيرة كاريكاتورية كتب عليها تفضل أهلاً وسهلاً نحن خارج البيت، هل تذكر كنت أصل إلى باب الشقة أضحك لنجد على الباب قصاصات كثيرة معلقة إلى جانبها.

مررنا ولم نجد أحداً.

الطاعون مر من هنا.

عندكم رغيف خبز وحبة بندورة؟

سارة... سعيد... مساء الخير.

اتصلوا معنا... مروا علينا.

نفتح الباب وندخل بهو الذكريات المحفورة في جليد أوروبا الباردة، تركض إلى الشباك لترى قاسيون تقتحمه المنازل والأنوار الصفراء البعيدة، تصرخ عليّ أغلق النافذة، الجو بارد.

أنا بدفيك!

نطرز أحلامنا بالقبل بعد أن نتعشى صحن مسبحة ومخلل نترك على الطاولة جرائدنا وكتباً وعلب سجائر ونتدثر، نحصي ذكرياتنا ليوم طويل مر ونقرأ القصاصات المتروكة على الباب ....أحمد وسلوى مرا وتركا رسائل، لازلت أحتفظ برسالة نادر على الباب وجدتها منذ أيام في كتاب له كتب عليها:

يسعدني أني لم أجدكم .... مثل كل المرات السابقة، لن أمر

ثانية... نادر مساءً ١٩/١١/١٩٨٥.

ومن جديد أثار في السؤال نفسَه ونحن نجلس في السرير ونقرأ القصاصات، فكرنا ملياً ماذا يقصد هل هو في حالة ما؟.

في اليوم التالي ذهبنا إلى نادر إلى السيدة زينب نسأل عنه قالت والدته بأنه لم يأت إلى البيت منذ يومين ازداد قلقنا عليه، وسألنا كثيراً عنه مروراً بمقهى الروضة والجريدة ومقهى الحجاز ومطعم السمك ودار النشر ولم يتسنَّ لنا معرفة أي شيء عنه، واعتقدنا أشياء كثيرة كسفره خارج القطر مثلاً أو الذهاب للالتحاق بالعسكرية أو الانتحار مثلاً، مضى أسبوعان أو أكثر ليطرق بابنا، مساءً حوالي الساعة السابعة، دخل علينا بحالة يرثى لها، كانت قد عادت هجمة الحساسية الدموية وتفتح جلد يديه وقدميه وهو يئن تحت أمواس الألم وغزارة الدماء المتسربة من بين أصابع قدميه ويديه.

ادخل... ما بك؟

لم يجب... جلس على أقرب كنبة تهالكاً،

كالح الوجه... شارداً وحزيناً قال: أعطني سيجارة

كان يدخن بطريقة جهنمية، فرد يديه وقدميه عند سؤالي عن أحواله ثم رفع نظره إليَّ وأنا أقف أمامه، حتى امتلأت عيناهَ بالدموع ثم قرر الانسحاب، حين خفض نظره حتى لا أرى دموعه، إلاّ أنني أثنيته عن ذلك.

دخل الحمام وسمعته يضحك داخل الحمام يضحك ونحن نعد له أنا وسارة الطعام.

قالت سارة: حالته صعبة... أنا متألمة عليه جداً.

خرج نادر بأقل اكتئاب وبؤس، جلس خلف طاولة الطعام وهو يأكل بصعوبة ويدخن ويناقش عن المرض الذي اخترق دمه وعقله

وعطّل مساحات وجدانه ووسع دائرة السؤال عنده.

كنتُ شارداً طيلة الأسبوعين الماضيين لا أريد أن يراني بهذه الحالة أحد، أجلس داخل سور المتحف تحت شجر الصنوبر والسرو بالقرب من عريشة الياسمين على سور الحديقة أتأمل قروحي التي تنز ولا تكف عن الجريان والدفق متسائلاً أي مصير نمضي إليه وأية نهاية تنتظر ثورات غضبنا ونحن نزهو ونعربد.

كان أقل كلاماً وكثير السرور!

مضى وقت طويل ونحن صامتون، نتحاذى أثناء خروجنا من مقهى الهافانا في ساعة متأخرة من يوم شتائي بارد.

تستيقظ سارة ذات مطر.

«قلتُ لكِ إنني تركت خربة الريحان، كنا على الساعد الغربي نتطلع بآمال كبيرة وأقمت في دمشق، أستحي أن أقول لك: إنني الآن رجل ملوث ودبق.

أصبحت أعرف سارة أكثر مما أعرف نفسي، ففي ليالٍ كثيرة وطويلة، ليالي الضجر والحزن، روى كل منا حياته للآخر، بكل تفاصيلها، ولم يبقَ لدى كل واحد ذكرى من الماضي دون أن نتحدث بها أياً كانت، ولا حتى حلمٌ من الأحلام الكثيرة التي عبرت، كنا نتبادل ونتقاسم كل شيء على الإطلاق، مسلّمين أرواحنا وأجسادنا لهذا الاغتسال الذي كان يوماً ما الهواء الذي نتنفسه.

وكانت وحيدة بالرغم كل شيء، كثيراً ما كانت تركض، مخلفة وراءها ذلك الامتداد الكبير للأسئلة والحيرة والذهول وهي تعبر الحياة، بيقين ظل يلاحقها إلى أن تلاشت في ضباب أوروبا وبعدها، أعرف كيف أصبحت وكثيراً ما كان يحمل النقاش الذي يدور بيننا إلى نهايات مستسلمة لذلك الغموض، للحياة، لينوب عنه اللامبالاة بالرغم كل شيء.

وكنت لا أتعب، كانت تقول:

أنا لا أتمتع يا سعيد باهتمامك هذا، لا تحاول، أنا امرأة معطوبة، سيأتي يوم ما أتمكن فيه من ضرب كل هذه الأسئلة عرض الحائط وأمضي أفتش عن رغبتي في الحياة التي أشعر بها تضنيني الآن.

لماذا كل هذا الأنين؟

وتبكي على صدري مثل جريح...

كنا نجلس في اليوم التالي قبالة بعض في المقهى، نحتسي القهوة، نتصفح الجرائد اليومية، طلبت مني يومها أن نمضي يوماً منذ الصباح بلا هموم أو حوار حتى..

قدتها إلى الغوطة، كان يوماً صيفياً، أرادت سارة الذهاب للسير تحت الأشجار لتستمتع بالظلال والأوراق الساقطة على جانبي الطريق ورائحة الأرض، استقلينا سيارة وذهبنا بعد أن قررنا المبادرة واشترينا بعض الحاجات من سندويش وماء وغير ذلك، انزلقنا ضمن طرق ضيقة مظللة بالأشجار، في دروب ملتوية، من دون أن نتحدث أو حتى ننظر إلى بعضنا بعضاً، وبالقرب من ساقية ماء جلسنا مما أتاح لنا الجلوس وجهاً لوجه، بقيت الشمس في السماء ونحن جالسون تحت ظلال الأشجار حتى ساعات بعد الظهر، قالت سارة مقترحة:

هل لنا أن نعود؟

لماذا؟ دعينا نأكل أولاً، أنا جائع!.

لا... لا من فضلك، أنا لست جائعة وإذا أردت أن تأكل سندويش على الطريق سنسير حتى الشارع الرئيس ومن هناك نستقل سيارة.

كانت تتحدث وهي تمشي.

انتظريني.

عادت وأمسكت بيدي، ثم أخذت تركض.

توقفت في منتصف الطريق نظرت إليَّ باستغراب، باستهجان.. ثم قبلتني على فمي من دون مقدمات وقالت:

أنا أحبك!.

أحسست بيد سارة وهي تضغط على ظهري، وقتها كنت عاجزاً عن الالتفات إليها، كنت مدهوشاً ولا زلت أصغي إلى خفقان قلبي الذي يهطل مثل مطر غزير.

يداً بيد وفي اليد الأخرى حقائبُ ونحن نمشي.

ذهبت سارة إلى مركز التدريب وأنا ذهبت إلى نادر.

عدت إلى سارة أجرُّ قدمين متعبتين، وصلت الملحق، أدرت المفتاح، دخلت لأجد سارة قد عادت؛ نمت إلى جانبها وهي مستغرقة في نوم عميق، كتبت لي على الطاولة ورقة «أيقظني في الساعة السادسة من أجل الذهاب للسفارة السويدية».

كتبت لها ورقة ووضعتها على الكومدينة جانب السرير، كتبت عليها:

استيقظي الساعة السادسة صباحاً.

في الصباح وحوالي العاشرة استيقظت على صوت محموم وهي تسعل

ما بك؟

كانت حرارتها مرتفعة جداً وهي تسيح بالعرق الذي بللها، غير قادرة على الحركة، في حين داهمها السعال الحاد.

في المستشفى وبعد الفحوصات الأولية والشعاعية والمخبرية تبين وجود التهابات حادة في الرئتين، وعليها الراحة والانتباه بأخذ الدواء طيلة خمسة عشر يوماً حسب توصيات الطبيب الذي كان قلقاً حيال السعال وحالتها الصحية المتدهورة وطلب منها الامتناع عن التدخين

خاصة في فترة تناول الدواء حتى تشفى.

عدنا ظهراً للمنزل وهي تجرُّ قدميها وتسبح في حرارتها وعرقها، لم تقل أية كلمة واكتفت وهي تعبر مدخل الشقة.

خذني إلى السرير أريد أن أنام.

تناولت الدواء وجلبت لها ماءً، وعندما عدت وجدتها قد نامت.

انتابني قلق مفاجئ يومها وأحسست بأن الطبيب لم يقل كل الحقيقة وبأنه خفف من وطأة الحالة، لأنني تذكرت ما قاله وتذكرت ملامحه وهو يقرأ التقرير الطبي المكتوب بلغة إنجليزية لم أفهم منها شيئاً.

مساءً زارنا نادر ومعه أحد أصدقائه يدعى أحمد كان يريد تقديمه إلينا وعندما وجد الوضع على هذي الحال، اختصر زيارته وسحب رفيقه وخرج، لقد تأثر كثيراً لحالة سارة وهي غارقة في شرودها الذي لم تقطعه إلا ساعات تناول الدواء أو طلب كأس ماء نظراً لجفاف ريقها.

بقيت سارة على هذه الحال تتعافى قليلاً ثم تتراجع وأخذت تذبل وتتبدل ملامحها، خلال الثلاثة شهور الماضية نقص وزنها ما يقارب العشرة كيلو غرامات وبدت نحيلة، وجهاً مائلاً للصفرة.

ذات مساء طلبت مني الخروج للتنزه في الحديقة المجاورة.

قالت لي:

خذني إلى حديقة قريبة علني أستنشق الهواء وأرى الناس وهم يتسوقون ويخرجون مساءً من ذاكرتهم إلى لهوهم وهواهم.

قالت لي ونحن نهبط درجات السلم: أحب هذه المدن يا سعيد...! المدن المسروقة ومع هذا فهي مليئة، أنظر إلى الخيرات المكدسة في السوق ومناظر الخضار والفواكه والمواد التموينية "ما حدا بيجوع" –

قالتها وهي تتنهد وتحس بالتعب.

بقيت طيلة المساء وأنا أمسكها من يدها، وأمرّ بها بسوق الخضار مروراً بالبقالية التي نشتري منها إلى بائع الفلافل والمصبغة ومكتبة نوبل حتى بداية حديقة السبكي وهي ترجوني أن أعيدها للمنزل قالت لي:

حاسة إنك بتودعني

ليش بتحكي هيك... أزمة وبتمر تذكرت يوم كنا نعود من الجامعة نمر بسوق الخضار نشتري بندورة وزهرة وبطيخ وحشائش نحمل أكياساً كثيرة كنت مأخوذة بمناظر الخضار.

نصل الملحق على كتف الدرج أمام قاسيون وتحسبين أنكِ اشتريت العالم تفردينها على الطاولة، ثم تقولين:

هذه تكفي لأسبوع كامل ... نعم لأسبوع كامل... لا للجوع.

تدخلين المطبخ الصغير، لتعودي بعد دقائق تحملين فنجاني قهوة وكأسَ ماء واحدة.

تفضل ... اشرب قهوتك المفضلة!

نشرب قهوتنا.

أية مدن ابتلعتك الآن يا سارة؟!

أجيبي... أرجوك... كيف صحتك الآن؟

هل مازلت تستيقظين ليلاً والسعال يداهمك؟

مَنْ يهتم بك؟

كان لابد أن أكتب لسارة عن ذلك ذات يوم ليس لإيقاد الذكرى لديها، بل لأنني بذلك أستطيع أن أمحو تضاريس الاستسلام لهذا الزهو الذي جعلني رهين حالة من الشعور بالمرارة بشكل دائم، وعلني بذلك أستعيد سارة من بلاد الثلج والصقيع، أحس إنني مسؤول عنها،

ليس غيري وهذا رهين اللحظة في حياتي، ولأنه مازال عليّ الانتظار وأخشى أن يمضي العمر ويكون انتظاري مضجراً لها، لهذا لم أكتب لها شيئاً، كنت فقط أعيد كتابة رسالتي أكثر من مرة أنقيها من الأشياء التي تجعلها غير قابلة للتأويل والحزن كنت ماأزال أعيش في كنف الأيام التي قضيناها سويةً بحلوها ومرها ومرارتها وفقرها، ومازلت أرفض أن أبوبها في خانة الذكريات وأرفض تحويل مشاعري لذلك وإلا ما معنى أن نعيشها ذات يوم.

تهربين يا سارة، وتهرب المدن.

اسكني مدني أيتها التائهة، أحلامك المعطوبة، صلواتك، أدعية الرقص وجلجلات روحي التي دوخها سفرك المبكر وأنت لا تكفي برسائلك عن الأسئلة والحزن والوطن.

لا أريد أن أسكت يا سعيد... أنت تعرف ماذا فعلوا به... قتلوه ورموه في مراحيض الحمامات وفي سجون وطنه، لأنه لم يستسلم ولم يساوم ولم يوقّع على صك كرامته وأرضه وشرفه، حدث ذلك قبل ذهابي إلى السويد بأيام قليلة ذهبت إليه بعد سلسلة من الإجراءات والمعاملات التي ركضت بها في وزارة الداخلية ومراكز الأمن وتعرضت للكثير من الإطراءات والتحرشات التي كانت تجعلني أكره الأنثى فيّ، لكنني كنت أتحدى هذه الذكورية الحقيرة التي كانت جداراً بيني وبين حياتي، قالوا لي في بداية الأمر إنه في المستشفى ولا تستطيعي زيارته لأنه في وضع صحي غير مقبول ولا يريد أن يراه أحد وهو في هذه الحالة.

أما أنا... ابنته ومن حقي زيارته وبالتأكيد هو يريد أن يقابلني.

هو قال إنه لا يريد أن يقابل أحداً.

وبعد جدال طويل توصلنا إلى صيغة مفادها أن أقابله في مكتب

المحقق العام وهو مسجىً على سرير المستشفى ولمدة عشر دقائق، أدخلوني في سرداب طويل ومظلم، كنت أسمع أنين وصراخ واستغاثات ووقعَ الأحذية الخشنة والصلبة على بلاط ذلك الممر الرطب والخانق في آن معاً، شعرت بالتقيؤ، وبأن معدتي تكاد أن تخرج من فمي، غير ذلك الدوار الذي هددني بالسقوط في أية لحظة، إلا أنني حاولت وبكل طاقاتي الإبقاء على هدوئي وتوازني، في نهاية الممر الطويل المفضي إلى غرفة صغيرة أجلسوني على كرسي، وبعد ساعة على الأقل دخل عسكري أصلع الرأس متسخٌ ورائحته نتنة، وهو يسحب سريراً عليه جثة والدي المقتول. شعرت لحظتها أنني لا أنتمي إلى هذا العالم، وبقي صراخي معلقاً في جدران ذلك الكهف اللعين، استيقظت بعد ثلاث ساعات في مستشفى الجامعة وأنا مصلوبة بين الموت والحياة، ووجه والدي المسجى لا يفارق أنداء نظري المثبَّت في ساعة جهاز الضغط المربوط على معصمي، كان هذا جزاء والدي الذي نذر نفسه لتحرير أرضه من الاستعمار وبتهمة انتمائه لحزب سياسي معارض قتلوه. وعدني ذات يوم بأنه سيشتري لي بيتاً في نابلس هناك حيث ولد وشرِّد، ومن يومها لم نعدْ ولم يشترِ لي بيتاً ولا حتى قبراً، أما أمي المسكينة لم تصبر على نهاية زوجها المأساوية وبعد ثلاثة أيام طلبت مني أن نزور جدتي، أمَّ والدي للاطمئنان على صحتها، استمعت سارة ووالدتها إلى مأساة والدها حتى النهاية وهو يعبر أغوار الأردن متسللاً، واختفاءَه لمدة سنتين حيث لم نعلم عنه شيئاً وتطرقت إلى مأساة شعبها والتضحيات التي قدمت في سبيل الوطن.

سجلت معظم التفاصيل عن شعورها وهي تغترب عن الوطن والحياة معاً، لتجد نفسها تعانق جدتها بحرارة الذي عثر على شيء فقده طيلة سنوات الهجرة ثم نظرت إلى والدتي لأجدها حزينة لتلك النهايات ومصير ذلك الرجل ومصيرها الذي ارتبط بسياسي وعسكري لم يفِ

يوماً في حياته بوعوده التي قطعها على نفسه، وبأنه سيعيشها عيشة هادئة وكريمة أيام الحب واللقاءات التي قضوها في بيت أحد الأصدقاء في مخيم اليرموك، وهي الدمشقية التي تربت تحت عرائش الياسمين والكبّاد والمشمش والتوت البلدي، وتشكرها على صبرها على والدها وحياته التي رهنها لوطنه وشعبه الذبيح بين مطرقة الغربة ومطرقة الحياة التي تدوسه.

وتقسم بأنها ستنتقم له، وأنها مستعدة لتكريس حياتها لرعاية أمها، والثأر لأبيها في عملية انتحارية في الأرض المحتلة، وستكون هذه مهمتها الوحيدة في الحياة.

قالت أمها:

لا يا بنتي أمامك مستقبل، الله ينتقم منهم وعليك بناء مستقبلك الذي يبدد غربتك وهذا بحد ذاته انتقام من كل شيء أما استسلامك فسيكون تحقيقاً لأهدافهم.. لا يا بنتي نطقت جملتها الأخيرة وماتت، بقي القبران رطبين طيلة حياتها، فهذا أسهل شيء على الإنسان كي يحمي ألمه وذاكرته ووجعه.

إذن ما الذي يجعلني أبقى يا سعيد بحق الإله؟.

لا يا سارة يجب أن تبقي هنا بيننا، نحن نحميك نحن أهلك وأنا حبيبك وسأصبح زوجك ورفيقك وحياتك وصديقك وأخاك وضميرك

ماذا... أي أهل يا سعيد وأي حب هذا، كلكم أغراب، وأنا لا مكان لي في هذا العالم أريد أن تنساني وهذا معروف سأكون شاكرة جداً لو أشعرتني ذات يوم بأنني لم أكن سبباً في تدمير حياتك ومستقبلك، أنا أحبك لكن قدرنا أن نفترق لأن همومنا متباعدة.

سافرت سارة إلى السويد، ومعها سافر قلبي وعقلي وبقيت سجين ورهين عودتها وظلها.

قلت لها قبل أن تسافر:

سارة: الحب هو أهم حاجة للبشرية في هذه الفترة الراهنة والعصيبة من حياتنا، إذ به نواجه القهر والظلم والعبودية ونتمكن من صناعة حياتنا وقرارنا بوجه أفضل وأجمل، ويبدو في هذا الكلام تعبيراً عن النفس في أسمى درجات تجسّدها عندما يكون هذا الاندفاع الغامض والجنوني، واضح التعبير ولهذا يجب أن نقدم الحب، باختلاف طرق التعبير على أساس الفعل والممارسة انطلاقاً من اختلاف مستويات الأنا، إن ما يولّده الحب من ألم هو أدنى درجات السعادة أو السلوك السليم.

والمشكلة: هي كيف نحوّل هذا الحب كرغبة في جعله حالة قائمة بعيداً عن الرغبة كصراع لا يهدأ أو بعيداً عن الحاجة كإشباع كذلك لا يهدأ.

... بالرغم من كل ذلك سافرت سارة.

قبل سفرها بيوم، في ذلك المساء انكسرنا على حافة الضوء ومن جحيم الذاكرة والأيام، عبرنا وكنا على حافة الاختصار، نتسكع على رصيف النسيان، ومدارات السكون والنواسة، في أعماق الوحدة دخلنا وانفردنا، وفي أزمنة خارجة عن المألوف خرجنا ونحن على حافة الاختناق بين البقاء والفناء. رجل وامرأة التقيا على عتبة الحياة ودخلا معاً إلى براري الذهول والظل وظلا يحبسان أنفاسهما إلى أن رجت خزائن السرائر المائجة تحت رنين الذهول ودهشة السعادة التي استرخت على وجنتيهما.

آه يا امرأة البراري والبيوت الرتيبة والأحلام الدافئة مِنْ أصابعنا يخرج اللهاث، هيئي أعناقاً لذوائبنا التي ما هدأت.

أية لحظة مباغتة، ستتفاجأ بالحنين ونحن نتشكّل بعد، أية

مدارات ستجرف أحلامنا ونحن نتهادى على قباب الروح والجسد؟؟.

اصحي يا زنابق الوجد، سيمر عابر طريق من هنا يقال إنه وصل الساعد الغربي لخربة الريحان سيأتي معه جنود من زبل ونشوة من الكمبيوتر سيخرج من فمه زبد، سيلتم من حوله ناس كثر من سطوة الركود سيخرجون، سيتعجبون كثيراً أمام هجوع الزمن ومهبط الخراب، قالت جدتي ليلتها وهي تدخل لتنام، لا أعرف ما الذي حصل لهذه القرية، منذ أيام عوى غرابها وماتت أبقارها وجف حليب قطعانها، ثم دخلت ونامت.

انتشلنا ضوء الشمس الذي تسلل باكراً من نافذة البيت، على حافة شباك الصالون جلست أتذكر آلام الليلة الماضية كانت تمور في رأسي لياليها المظلمة والموحشة.

... نحن الريفيون يا سارة طيبون وتعساء.

أنتِ أول من التقيته في المدينة، قابلتك عند جسر فكتوريا، كنت أسير على يمين الشارع الموازي لحديقة المعرض محاذياً لنهر بردى، وكنت مقبلة كفرس، أمامك وقفت.

ارتعدتِ، صهلتِ، بأطراف شعرك طرفت عيني عندما ابتعدت، وبعينين قرأت رسائل السنونو المارة، وبعدها ضيعتك.

كنت أبحث عنك في كل مكان، أفتش في مذكرتي اليومية المليئة بالكلمات والملاحظات وأرقام الهواتف، أفتش عن تاريخ ذلك اليوم، كمن يفتش عن أحلامه في نافذة للكلمات المبهمة، وتأخذني ذكرياتي في المفكرة فأنسى يومك، ثم أعاود البحث من جديد وتكبرين يا سارة بعمر الأيام التي لم أجدك فيها، كنت أخترع بروفات لملاقاتك أقف أمام المرآة، وأصرخ في بطن العتمة، من ذهولي، ثم أتدثر دهشتي، التقيتك فجأة، أخذتك بكلتا يديَّ ذات يوم وقبلتك

وسط الشارع بعد فترة طويلة من تعارفنا لأول مرة، ضمن زحام المارة أنا القادم من هياكل الطين وألواح القدر والعادات والتقاليد. وعبث الطفولة يومها بمراتع السعادة التي طوقت لقاءنا الثاني وهكذا يا سارة ومن يومها وأنا أعاتب الحياة على القدر الذي زرعك في تربة الاختبارات المؤلمة.

هناك صورة لجدي ولك ولي، وهي الصورة الوحيدة المتبقية من مجموعة الصور التي كنا تقاسمناها بلا شعور ونحن نعيش ونفترق، لسبب ما، كان يختبئ في لا وعينا لنحتفظ بأكبر قسم من ثبوتيات ذكرياتنا ولهذا كنا بعد كل رحلة أو حضور سينما أو مسرح أو شراء ورقة يانصيب غير رابحة نتقاسم البطاقات المدوّن عليها تاريخ وساعة الحضور ونوقع كلانا على افتراقنا القادم. ...صورة وحيدة نجت من تنقلاتي الكثيرة موضوعة في كتاب وقع في يدي بالصدفة وأنا أقلب صفحاته كان «زوربا» لمؤلفه نيكوس كازانتزاكس.

وتبدو سارة في الصورة وهي تضع يدها على جبينها، تردُّ شمس أيلول عن محياها، ترتدي تنورةً طويلة وحذاءً بنياً ذا أربطة كثيرة وقطيفة سماوية مطرزة بالدانتيل الأبيض حول عنقها، المغطى بشعرها الأسود الليلي الطويل، جدي إلى جانبها جالس على صخرة، وعيناه تلوكان سنين عمره التي مضت، يضع يديه في حضنه على عكازه، أما أنا فقد وقفت جانباً أرقبك وأنتِ تمدِّد آمالك باتجاه الساعد الغربي.

أنتِ وجدي الأكثر وضوحاً ورسوخاً في حياتي، والحب الأكثر قِدَماً، والذي يصطدم به جميع البشر الذين مروا في حياتي وعرفتهم عن قرب أو عن بعد، لأن أياً منهم لا يستطيع أن يماثل أياً منكما، حيث يمكنني أن أرى جدي في الصورة متماسكاً، وجيهاً، ووسيماً،

يرتدي ملابسه الرسمية حسب التقليد الشعبي الذي ينتمي إليه.

مذ صرت قادراً على تذكر تلك اللحظات بعد غياب سارة يعذبني الكابوس نفسه وترافقني هذه الصور اللجوجة طوال الساعات، تحبط يومي، إنه المشهد نفسه الذي طالما تذكرته ونحن ندخل خربة الريحان لأول مرة، حيث رافقنا الأولاد عند مدخل القرية وهم يحيطون بنا بألبستهم المهترئة وأشكالهم الملفوحة بالشمس والغبار، يتطلعون إلينا باستغراب وكأنكِ قادمة من كوكب آخر.

دخلنا صباحاً مضافة جدي، حيث كان يجلس أمام حوانيت قهوته العربية مثبتاً نظره في امتداد الأفق غير المتناهي، هكذا قفز من مكانه وهو يهلّل ويرحب بقدومنا.

استقبال جدي لنا أدخل السرور إلى قلبكِ وأنت تتجاوزين عتبة الباب تقدمين ابتسامتك الخجول عربون لقاءٍ لأناسٍ سمعتِ عنهم الكثير قبل أن تريهم، لديك سجلٌ كامل بهواجسهم وحيواتهم ومصائرهم، وأنتِ هنا لمطابقة هذه السجلات مع الواقع؛ وإذ بك تجلسين جانب جدي.

اقتربي يا عمي.. اقتربي.. القهوة طازجة

تشربي قهوة مرة.

نعم حجي.. بشرب.

جملتك الرقيقة أدخلتك سريعاً إلى قلوبهم.

دايمة حجي.. قهوتك طيبة.

فنجان ثاني.

بشرب.. طيبة.. أطيب من قهوتنا الحلوة.

دخلت جدتي.. أهلاً وسهلاً بالضيوف.

إحنا مو ضيوف يا حجة.

البيت بيتك.. يا حبيبتي.. إنتِ وسعيد، أكيد بعدكم بلا فطور..

بعد قليل قدمت لنا الإفطار وبدون أية دعوى اقترينا.

أهلاً وسهلاً.. كله من خير الله والأرض.

أكلنا.. كلوا صحة.. غير أكل المدينة (اللبن والجبنة والزبدة والبيض) كله بخيرو ومن الطبيعة.. قال جدي وهو يطلب من جدتي

هاتِ حليب.. حليب ماعز أكيد راح يعجبك.

لأول مرة أراك تأكلين بهذه الشهية وأنت تتحدثين مع جدي عن المواد التموينية التي تشترينها من المدينة بأنها غير جيدة ومشكوك في صحتها ونظافتها وتركيبها.

قال جدي:

يا عمي.. الريف خير.. ولولانا أهل المدينة بموتوا من الجوع.. بس الله كريم.

أكلنا كثيراً بترجي جدي وجدتي.

وأدخلت عدوى حماس الشباب إلى روح جدي ومع شرب الشاي بدأ النقاش بأمور السياسة.

من أ ي بلد سارة.. سأل جدي.

أنا فلسطينية يا حجي.. سارة حداد.. من فلسطين.

بعرف من فلسطين.. من أين من فلسطين.

من نابلس.

من نابلس.. أيام.. أيام..

بدأت الذاكرة تلوك رعيان ناظريه وهو يهجي بتراتيل رجل اختبرته الحياة، رفع نظره وسرّحه خارج باب الغرفة، وأخذ نفساً عميقاً، عدّل من جلسته وهو يهرب من ذكرياته البعيدة والتي وشت على نحو مرير

فبدا وكأنه مهزوم، مطعون. قال:

مرت سنوات.. سبع سنوات صار الفنم. يلحس الصخور ويأكل تبن الحيطان من الجوع، سبع سنوات لم ينبت فيها زرع ولم يدلف فيها ضرع يقبع بكل جبروته، ذهبنا إلى فلسطين عبرنا الساعد الغربي غرباً شباب بعمر الورد، كان عمري وقتها سبعة عشر عاماً مشينا مع الفياضات باتجاه الجولان مروراً بطبريا ومن هناك دخلنا فلسطين، وصلنا بعد يومين من السفر مرة مشياً على الأقدام ومرة بوساطة سيارات عابرة حتى وصلنا منهكين من التعب، أمام مسجد في بطن المدينة جلسنا نمسح غربتنا عن جباهنا حتى لا يبدو علينا غرباء، نمنا من التعب حتى الصباح. غطاؤنا السماء، ونحن نفترش أرصفة مداخل باب الله. في الصباح الباكر تجمع عدد كبير من العمال جاؤوا من مناطق بعيدة بقصد العمل، ومن ثم وقفت سيارة يجلس فيها بالخلف رجل في السبعين من العمر يحمل عكازاً، وخاتمه يلمع بيده وهو يشير إلينا فقال:

أنتَ..

اقتربنا من نافذة السيارة... نعم.

ماذا تعملون أيها الأولاد.. بلهجة ركيكة.

إلى بساتين وبيارات حمضيات دخلنا تحت أشجار السرو العالية ورائحة الليمون والحمضيات تكوي جوعنا بالتهام البيارات جميعها اصطحبنا إلى مزرعته الواسعة.

وأشار إلى الأشجار، قال:

علينا قطف موسم الحمضيات والتفاح مقابل أجر يومي لكل واحد منكم لم يكن يتجاوز وقتها قروشاً قليلة. ثم أدار ظهره.. ركب السيارة وغادر.

في الحال دخلنا البيارة ونحن نضع حبة في السلة وحبة في الفم من شدة الجوع، بقينا على هذه الحال حتى حل فصل الشتاء.

لم تكن سارة تعرف عن فلسطين شيئاً بالحقيقة لأنها لم تولد ولم تعش هناك.

قالت: احك يا حجي.. احكِ..

شو بدي احكي يا عمي، فلسطين أرض خيرات، أرض الأنبياء والرسل. بعد أن عملنا ما يقارب أربعة أشهر عند الآغا شالوم توجهنا إلى حيفا، قالوا لنا هناك عمل في الميناء وصلنا حيفا مع ساعات الفجر الأولى ونحن نستقل سيارة قديمة أشبه بكرفانة قطار بالية ومتروكة مرتع للعب الأولاد في حارة بعيدة، كان ميناء حيفا ذلك الصباح بارداً، ومازالت آثار أمطار الليلة الماضية واضحة فالشوارع مغسولة والسفن راسية في ضوء الشمس الذي بدا خجولاً في ساعات الفجر الأولى متوهجاً حين رست السفينة في المرفأ، القادمة من اليونان، قالوا لنا عند دخول حرم المرفأ.

كونوا حذرين.. هناك مسؤول عن العمال يجب أن تخبروه بأنكم هنا للعمل حتى يسمح لكم ويقاسمكم على الأجرة مقابل حمايته وتقديم خدماته. وصلنا إلى مكتبه كان يجلس على طرف سريره، رجل ضخم ملتحٍ أسمر اللون، يدعى الخواجى طوني.

من أين جئتم؟

من سوريا.

ماذا تفعلون هنا؟

نريد أن نعمل في المينا

٢٥٪ لي مقابل حمايتكم، الوضع هنا صعب وعليكم الالتزام بكافة التعليمات.

هبط ركاب السفينة ونحن ننظر إليهم باستغراب وهم يرتدون ملابس نظيفة وجميلة وأمتعة وحقائب وأولاد ، عائلات كثيرة هبطت السفينة كنت أنظر إليهم وأنا فاغر الفم وأنا أستعيد حياتنا ولم أتمكن من طرح أسئلة كثيرة، كنت ملتحماً بذلك الطقس الأسطوري. كنت متأكداً من ضآلة التغيير الذي طرأ عليَّ فجأة وأنا أتعرف إلى الحياة التي أتطلع إليها ، بمغامرة وحماس.

بقينا حتى المساء ونحن نفرغ حمولة الباخرة الكبيرة وندخلها المستودعات الضخمة وهي عبارة عن صناديق ثقيلة لا نعرف ما بداخلها بقينا على هذه الحال ثلاثة أيام، خلالها ازدادت أعداد السفن الراسية في الميناء وحجم البضائع القادمة إلى الميناء وفي اليوم الثاني بدأت حرب الـ ٤٨ وتواصلت في البحر واليابسة وكان علينا أن نهرب..

دخلت الجيوش وشردت الملايين من ديارهم هربنا مع الذين خرجوا عنوة من ديارهم بالبارود شرقاً باتجاه الوديان والجبال.

عدنا في ليلة باردة نلتحف سواد حظنا وهذه المصيبة التي حلت، بقيت سارة طيلة الليل، كدوامة لا تهدأ وهي تحاول ربط الأمور بعضها ببعضٍ، وهي تتذكر ماذا حصل لوطنها إلاّ أنه عبثاً كان، لقد أدركت بشكل مبكر أن المسألة حصلت ولابد من الآن مقاومة هذا الشعور الذي يكاد يمحي وجودها في أي مكان.

تدثرت بهذه الفكرة التي لم توصلها لشيء إلاّ لإقناع نفسها بأنها مجدية ولا يوجد غير هذا الحلّ، بينما خرجت سارة على السطح، تستشعر القمر بشيء من الأمان.

لقد أمضت سارة ليلتها وهي حبلى بأفكار تنوس في عقلها جعلتها ولأول مرة في حياتها تدرك مصيرها على هذا النحو، لأنها قلما اهتمت من قبل بإجراء حساباتها بشكل دقيق لمعرفة أسباب نكبتها النفسية

وكانت تُقدِّر بشكل خاطئ ودائم ومن خلال مرات عديدة أن التحولات الخطيرة التي داهمتها قد أفقدتها شيئاً من عفويتها وبساطتها وجعلتها تشعر بالفعل وخاصة في تلك الليلة بشعور ينضوي على ضياع وعدم حكمة في التعامل مع ظروفها ولهذا ما إن أيقظ جدي لديها كل تلك الذكريات حتى تبين لها مقدار الضعف والهشاشة التي تتلفع بها ولكن سارة ظلت دائماً خارج كل السيطرة والحسابات وهي تضع زمن المصادفات الذي يحكم مزاجها وقراراتها الفردية والذاتية على نحو جعلها دائماً وحيدة، تصبح كئيبة وهي تتلوى إثر مُلوحةِ دموعها، وتبدو لي كحوض فيه أوراق خريفية ميتة. إلا أنها سرعان ما تنتفض.

أنا قوية، أقوى من الظروف، لا تنظر إليَّ بضعف وبشفقة، أكره هذه النظرة، ولا أريد مواساتي على نحو يشعرني بحالتي ويؤكدها، أنا غير جديرة بألمي.

تفترض ذلك، لأن الألم هو طاقتها في تكوين ذاتها وهذا من شأنه التوفيق بين الألم واحترام المشاعر.

لا يا سارة.. كنت أنظر بعينين مدهوشتين إلى أي حد يدعنا كبرياؤنا نفصل بين المشاعر والعقل، ونمتحن قرب الآخرين منا بهذا المقياس.

المسألة بالنهاية هي أن نتعلم من جديد إيقاع الحياة وهي تدور كأسطوانة وتصدح بموسيقاها عندما تبدأ آلامنا بالانفجار.

كان كلانا على حافة الشعور بالفزع وكأن ذلك الفضول القوي بعث بتلك القشعريرية التي هدت روحينا على نحن مضنٍ.

كان أنين صوتها يجول على السطوح وأنا أقترب منها، حيث لم ترني بعد.

اقتربت منها ، بينما توقفت أنفاسها عن الخفقان استقبلتني بكلتا يديها كما لم يحدث ذلك من قبل وهي تضغط بكل قوتها على أضلاعي، بينما كان صوت أذان الفجر، يرتجف مع إيقاع الليل ونحن ندمدم بصلوات كنت موقناً بأن ذلك سيكون بداية لرحيلها المبكر وهي تلوك بصوت خافت كلما كانت تمشي على خيوط الفجر الأولى، مثل سراب عكر، غريب عن صهوة آمالي، وكأن شيئاً لم يكن.

ثم أبعدتني عن صدرها.

دعنا نمشِ.. في هذا الفجر؟.

تجولنا في خربة الريحان فجراً ، ونحن نستشعر خطانا ببرد الصبح الذي لفح ضياعنا.

في لحظةٍ قالت:

لم يتحدث جدك الكثير لكي يجعلني على هذا النحو من التفكير أو الألم، كل ما قاله أشياء بسيطة إلاّ أنني أؤكد لك مقدار الانعطاف الخطر الذي أحدثه داخلي، ولهذا ولأول مرة في حياتي أشعر بهذا الدوران الذي جعل انحرافي ١٨٠ درجةً عما كنت عليه صباحاً وسأظل مدينة لجدك على هذا التغيير الذي جعلني أدرك من الآن كيف أقرأ الحياة، أستطيع الآن أن أقول لك بعد كل ذلك: إن الانتهاكات العقلية والروحية لا تغتفر في تاريخنا الشخصي وخاصة عندما لا تملك بالأساس هذا الوضوح القيمي كالموسيقى مثلاً لأن الفجوة بين القيم الشخصية وقيم الحياة شيء غير منطقي أشبه بالضباب الميتافيزيقي الذي يجعل من أيامنا وشوشات تمضي من دون صدمات واقية نتعلم منها معنى الشفاء والقوة بآن معاً.

أعترف أنني الآن غير قادرة على إيصال الفكرة كما هي في

داخلي إلاّ أن الفكرة الأساسية هي مثيرة للفضول لديك كما لديّ ولا أملك غير الشفقة على نفسي وعليك، لأن ذلك سيبعدني عنك ببساطة إنني الآن امرأة أخرى، غير سارة التي تعرفت إليها ذات يوم.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها بكل هذا العمق والوضوح وبالرغم من حجم الألم الذي أصابني إلاّ أنني كنت أستمد طاقة كبيرة من آمال سأعترف فيما بعد أنها كانت أقل بكثير من الحقيقة.

عدنا إلى دمشق في اليوم التالي ولم يكن لشيء أن يثنيها عن عزمها في الرحيل، ونحن نستقل سيارة أجرة باتجاه المطار، كانت الرحلة الساعة السابعة مساءً من يوم ١٥/١٠/١٩٨٨ حيث المساء يشي بآلام كثيرة قادمة، وفيروز تكسر صمتنا وهي تغني: (وحدن بيبقوا مثل زهر البيلسان) هكذا رحلت سارة ذات مساء، ومن دون سابق إنذار أو إشارة بالرغم من كل تذمراتها وسخطها المتكرر، وإقحامي الدائم بسطوة هواجسها التي لم تهدأ ولم أتمكن من ضبطها أو تغيير مجراها، ودعتها في المطار وأنا مذهول، بينما سارة تبدو بلا ملامح، امرأة كأني أتعرف إليها للمرة الأولى وهي تجهز أوراقها أمام كوة الجمارك وأمن المطار، من دون أن تعيرني أيَّ اهتمام أو تنظر إليَّ حتى حين تحدثني.

عندما عدت إلى نادر في الليلة نفسها بعد عودتي من المطار، لم يكن نادر متفاجئاً بقرار سفر سارة ولم يعتبر أنها مشكلة أو كارثة قال لي وهو يضع فنجان القهوة أمامي:

بالمناسبة.. الأمور برمتها ليست كما تراها وقد لا تكون كما أراها، والموضوع لا يقاس بأنها سافرت أو بقيت، وما هو الشرخ الأساسي في حياتها أو تكوينها النفسي والفكري والعاطفي أبداً.. بتعرف أنا زمان كنت مثلك، كنت أعتقد أن الأمور كذلك. إلاّ أن

تجربتي النضالية أثناء العمل الفدائي جعلتني أنظر إلى الأمور بطريقة مختلفة.

ذات يوم وبعد سنوات طويلة من العمل السياسي والتنظير المكتبي والصحفي في جبهة التحرير، انتقلنا إلى العمل الفدائي في لبنان بعد أن اكتشفنا أن هناك بعداً شاسعاً بين الخطابات الحماسية والتنظيرية والاختبارات الحقيقية لدى إيماننا بقضايانا ونحن نحافظ عليها بقلوب نبيلة وأذهان صافية دون مآرب وطموحات فردية وشخصية بغض النظر عن انتماءاتنا خاصة تجاه قضايانا المركزية وكنت دائماً إذا ما توفرت ظروف الاختبار أشعر بتلك المسافة ولهذا قررت ذات يوم الالتحاق بالعمل الفدائي. لأن الأحزاب والتنظيمات كانت فاسدة في جوهرها ولابد من إلغائها بتجاوز تنظيراتها، خاصة عندما تحدُّ من حريتك في التعبير واستعباد الآخرين في بؤسهم.

في الليلة الثانية لوصولنا للمعسكر ونحن جالسون على مائدة العشاء كان قائد المعسكر مسؤولُ التوجيه السياسي يتحدث عن تضامن القوى الوطنية وإقامة صداقات حقيقية مع التوجهات المتعارضة، بنبرة خطابية لا تخل من التنظير المدوي.

وعندما قدمت مداخلتي لقائد المعسكر عن أن هذه الأيدلوجيات أفل نجمها بعد تغيرات كبيرة في العالم اتهموني بالفوضوي.

جلست وأنا أجترُّ خيبتي من عقم هذه التنظيمات وقررت الانسحاب من العمل السياسي بشكل كلي.

وقعت حرب الخليج الأولى، وبدأت صحة جدي تتدهور شيئاً فشيئاً، وهو ما يزال يضع المذياع على أذنيه، يستمع للأخبار والنشرة الجوية التي أصبحت همه الثاني ولم تعد سوى الشيخوخة التي بدأت تدب فجأة وسرعان ما اختفت ملامحه الضاحكة وانكسرت نظرته المتفحصة والمتأملة بآن واحد، اختفت من الدار، أغمض عينيه وهو يستمع إلى الأخبار التي تتحدث عن القصف والدمار وحجم الكارثة التي وقعت وموقف العالم من هذه الحرب القذرة.

حاولت زوجته حسنة إشغاله ببعض القصص والحكايا عن الموسم والأرض والفلاحين وهموم خربة الريحان إلاّ أنه لم يستجب لكل هذه الانشغالات وظل شريداً وهو يحمل مذياعه ويتكئ على الجدار الخلفي.

حلَّ المساء في ذلك اليوم الأسود، وبقي جدي مغموراً بضوء المصباح الأصفر، ويسأل حسنة: هل أتى إلينا أحد؟ هل سأل عني أحد ما؟

كلا لم يسأل أحد!

الحرب دمرت الناس وكسرت نفوسنا.

أثناء ذلك وقف جدي فجأة، كان يبدو عليه الارتباك والتعب.

ها قد خسرنا كل شيء يا حسنة.

قالها بحزن وهو يخرج لصلاة العشاء.

عندما أعود سوف أنام باكراً.

توقفت للحظة وهي تصغي إليه في ممر المضافة الطويل قالت:

هناك ضجة في الحارة.. مقابل المسجد.

خرج مسرعاً ليستطلعَ الأمر ليرى جارتهم (عليا) تركض وتلهث وهي تستنجد بسيارة لإسعاف زوجها وهي تولول:

- الله يلعن أبو أمريكا.. ما جابت غير الحرب والدمار والموت.
- ماذا حصل يا عليا.. خاطبها جدي؟
- يا حجي، أبو سامر يرتجف وقد اصفرّ وجهه ولا يستطيع أن يتنفس يكاد أن يختنق.
- ما به؟
- ما بعرف.. الأخبار.. أخبار العراق!

ركضنا مسرعين إلى منزل أبي سامر لنجده ممدداً أمام التلفاز وقد فارق الحياة.

في اليوم التالي دُفن أبو سامر في مقبرة القرية وأثناء مراسم الدفن ألقى رئيس البلدية خطاباً شرح فيه أزمة العراق وخربة الريحان وضرورة استيعاب المرحلة الراهنة وتحالف القوى الوطنية، ثم تطرق إلى النكسات التي مرت بها الأمة العربية بدءاً من حرب ٤٨ حتى حرب العراق خلال الخمسين سنة الماضية.

هكذا ظل جدي في الفترة الأولى من حرب الخليج حزيناً وكثيراً ما كان يجلس أمام مضافته وهو يرتدي لباسه الأبيض إلى أن هَجَر مذياعه، قال لحسنة:

- ضعيه في مكان بعيد لا أريد أن أفتحه مرة ثانية ولا أريد أن أسمع أخبار.
- عين العقل عملت، شو طالع بيدك.

دمـرتْ حياتـك وعمـرك في السياسـة وتحسـين ظـروف حيـاة خربـة الريحان والنتيجة شو.. على عكس ما كنت تحلم وتخطط وترتب.

زاغت عيناه بشمس تشارين، لقد كان يحلم بأمة عظيمـة ووطـن كريم ولكن قُدِرَ له أن يعيش بقية حياته في فسـاد الحكـام وحـرب الخليج وتبدل القيم.

لقد خانته الحياة وهو عجوز، فركلته بين أنيابها ولم يستسلم لقهرهـا وظلمهـا ظـل يواجـه إلى آخـر يـوم في حياتـه إلى أن هـده الهـم والمرارة واليأس.

مضى عقدان دون أن أتذكر ذلك بدون ألم ولكنها هي المرة الوحيدة التي أشعر فيها بقيمة هذه الأشياء وأنا أرويها الآن. فليس عبثاً أن نسجل على نحو ما كل ما يقع على أقدارنا من تغيرات أو تبدلات ولابد أن ذلك كان يذكّرني على نحو ما، في كل لحظة، بضرورة هذه الأشياء التي أحسست بها بسبب خطورتها على التكوين النفسي والذاتي، وعندما ظهرت ذات يوم وكأنها لا تشبه الماضي الذي ولدت فيه مثلما كان الواقع تماماً واعتبارها هي بالفعل وجدت وبأنها لا تحتمل، لقد احتضن بيت جدي الكثير من الناس أثناء الانقلابات السياسية التي حدثت في البلاد وأثناء المداهمات التي كانت تحصل وخاصة في ساعات متأخرة من الليل وفي ساعات الفجر الأولى، علماً أن ذلك لم يؤثر بشكل سلبي أو إيجابي بالطبع على مكانة جدي الاجتماعية نظراً لأنه لم يكن يعتبر ذلك بالتضحية أو الواجب أو أنه عمل بطولي يجب أن يكافأ عليه.

ذات يوم وفي ساعة متأخرة من ليلة شتائية، بينما دخل جدي لينام بعد أن تفقد حوش الأغنام والحصان في زريبته أمام مضافته، سمع وقع أقدام خارج الدار وتحت الشبابيك وفوق الأسطحة، ثم فتح الباب بقوة واندفع مسلحان إلى داخل الغرفة، ظل جدي في سريره متدثراً من دون أي خوف مما يحصل وكأن شيئاً لا يعنيه.

قيدوا يدي خلف ظهري وأنا أرتدي ثياب نومي ووضعوني في سيارة بالخلف يحيطني أربعة عناصر مسلحين، في الأمام يجلس السائق وقائد الدورية وبعد أن اندفعت السيارة في الوحل والطين وتحت المطر، وضعوا عصاباً على عيني وانطلقت السيارة وأنا أحاول نزع رجاءات

حسنة وفاطمة ودعائهما الذي ظل يلهث خلفي وأنا أحاول أن أتجنبه، بقيت شهرين في غرفة صغيرة ومظلمة، لا أرى فيها أحداً غير ذلك الصحن الأسود الذي يدخل من تحت الباب ثلاث مرات يومياً فيه بقايا طعام ورغيف خبز، يدخل وبعد خمس دقائق يسحب وكثيراً ما يسحب دون أن ألمسه، بعد شهرين، اقتادوني إلى غرفة التحقيق وتم استجوابي.

ما اسمك

شريف الرزاز!

عمرك؟

اثنان وثمانون عاماً!

ماذا تعمل؟

لا أعمل شيء.. في الفلاحة وتربية الأغنام.

زوجاتك؟

أولادك؟

أقاربك؟

جيرانك؟

أصدقاؤك؟

أخيراً – السؤال التالي:

ماذا قلت ليلة البارحة الساعة التاسعة والنصف في مضافتك وأمام فلان وفلان وفلان؟.

بقيت صامتاً وأنا أنظر إلى فنجان القهوة الموضوع على الطاولة وتعبق في أنفي رائحة القهوة العربية.

كل الذي قلته ليلة البارحة.. الساعة التاسعة والنصف وأمام فلان وفلان وفلان وصلكم صحيح بالحرف الواحد.

- يعني مو خايف يا حجي؟
- من شو بدي أخاف.. ما بقي شيء نخاف عليه غير العجائز؟
- يعني صحيح ما قلته؟
- صحيح.. من وجهة نظري على الأقل؟
- يعني موقفك.. لا يتغير تجاه حرب الخليج
- إذا بقي أو تغير، لا يغير في واقع الحال من شيء
- لكن يا حجي هذا قرار سياسي!
- نعم.. أعرف ذلك ولكن هذا رأيي!
- إذن.. أنت تعترف!
- نعم.. أعترف.. لكن بماذا أعترف؟
- بما قلت؟
- وماذا قلت.. وهل في الأمر ما يستحق أن أقاد إلى هنا بهذه الطريقة المذلة والمهينة وأرمى في زنزانة لمدة شهرين من دون سؤال أو جواب؟

هكذا عدت بعد شهرين وثلاثة أيام إلى خربة الريحان إلى حسنة وفاطمة وعندما عدت لم يدخل إليّ أحد ليسلم عليّ غير حسنة وفاطمة اللتين امتلأتا بالحزن والانتظار..

حصل ذلك خلال حرب الخليج الأولى.. وكان على جدي أن يكتشف متأخراً عقم هذه التنظيمات وجدواها في بناء خربة الريحان، والذي جعله أكثر ريبة هو هؤلاء الأشخاص أنفسهم لقد كانت تتدنى مراتبهم عند جدي وهو يكتشف ضحالتهم وعدم انتمائهم الحقيقي إلى الوطن وهكذا انتشر الفساد في خربة الريحان والرشوة والمحسوبيات وازداد عدد الفقراء وبقيت طبقة وحيدة تملك الكثير.. الكثير ويتحكمون في مصائر الآخرين.

ولهذا هبط اليأس على ملامح جدي وبدا في أيامه الأخيرة باهتاً وحزيناً إلى أن سقط فجأة ذات يوم وهو ينوي قيام صلاة العصر، ركضوا من حوله بسرعة واستقلوا سيارة إلى المستشفى، وهو مستلقٍ على نقّالة من دون حراك مستنجداً بطلب الهواء كي يتنفس لأنه يشعر بالاختناق وبدا لونه أصفرَ مائلاً للزرقة، في غرفة العناية الفائقة استسلم للأوكسجين وبدت درجة الخطر أقل، كان يتلعثم بقصص غير مفهومة في حين كانت لديه لحظات صحو كاملة، ثم يعود إلى حالته وهو يتكلم بأشياء غير مترابطة، يضحك ثم فجأة يتشنج وجهه وتترغرغ عيناه ثم يغمضهما فتسقط دمعته كحبة البرد، لتنزلق على عظامه الناتئة في وجهه.

بقي على هذه الحالة مدة أسبوعين، كان التحسن بطيئاً نسبياً، حيث بدأ الربيع يستعيد عافية وبدت الأرض تكتسي ذلك الزهو لغلالة الفائر بغرائز الحياة.

كان اجتياز جدي لمحنته الصحية أثراً إيجابياً في حياته فقد بدا بعدها متفائلاً وانسحبت عنه غيمة اليأس التي خيمت قبل مرضه وإبان حرب الخليج وتدهور الأحوال في خربة الريحان.

وهكذا بدأ يهتم بالعمال والأرض وشؤون القرية وإكمال بناء المدرسة وخزان المياه ومقبرة ومستوصف صحي، واضطره ذلك إلى إعادة لَمْ شمل أهالي القرية إلاّ أن الأمور قد تغيرت كثيراً ووجد صعوبة في جمعهم، كانوا يدخلون إلى بيته متخاصمين، كُلٌ يدير وجهه للآخر، وجوه عابسة وجدي يجلس على أريكة في صدر الغرفة إلى أن وصل العديد من المدعوين والذين يمثلون مختلف الفئات من أهالي القرية لبحث الأمور.

رفع جدي نظره إليهم واحداً تلو الآخر كانوا جميعهم أقارب وأولاد

عمومة وأنسباء وأصهار دم واحد، ولم يكن ذلك سبباً كافياً لجمعهم أو إصلاح الخلافات بينهم والتي نبتت كالطحلب في جسدهم.

هز جدي رأسه وهو ينظر إلى الأرض قال:

يا حرام على خربةالريحان.. على الأيام التي قضيناها ونحن قلب واحد ويد واحدة واليوم ما الذي حصل لكم ولماذا أنتم على هذا الحال

كان الجميع مستمعاً وينظر إلى الأرض.

الأفضل لكم أن تعيشوا وليس لكم أن تحكموا على أنفسكم بالموت، إن الإنسان الغير القادر على الحب والحرية، ليس جديراً به أن يعيش، والأجدر به أن يموت، كنتم إخوة متحابين على السراء والضراء، كنتم جسداً واحداً، بالرغم من كل انتماءاتكم السياسية والفكرية والدينية، كنتم قلباً واحداً على خربة الريحان، كنا سطحاً واحداً لمنازل كثيرة، نتقاسم الرغيف والجوع والبرد، نتقاسم قلوبنا محبة وألفة وأماناً. الآن أنتم مجانين، يتفرس قلوبكم الحقد والغيرة والكراهية وحب السلطة والمال والنساء وجني المال بالحلال والحرام، هل فكر أحدٌ منكم في نفسه في جاره في أخيه في أمه في أخته في أبنائه.

هل لكم أن تصحوا من هذا الليل من هذا المرض المستشري في دمكم والمهدد لمستقبلكم وماضيكم بالاندثار؟

فجأة خفض جدي صوته،

يجب أن أعترف لكم، وربما جاء اعترافي هذا متأخراً، وربما في مكانه وزمانه، لكنني أرغب في أن أتكلم على مسامعكم وأرجو أن يكون لكلامي هذا، مكانة عندكم إذا أصابكم، أو لامس قلوبكم المليئة بالضغينة قد تقولون هذا رجل خرِف، كبر في السن ويجب أن يلزم بيته وفراشه، عم يتطاول على حاضرنا وينظر لمستقبلنا

ولم يعد بالأصل قادراً على المحاكمة حتى، المهم اسمعوني وإذا أردتم القوه في أقرب حاوية زبالة عندما تخرجون من هذا الباب، إلاّ أنني أؤكد لكم بأن الذي سأقوله شيء يحرق دمي ولا أستطيع أن أبقيه معي وأنا أوارى في الثرى في يوم قريب، ولهذا أشعر أنه لمن الأمانة أن أدعه لديكم وافعلوا بعدها ما شئتم، قد تقولون ما الذي سيقوله شريف الرزاز بعد هذا العمر وسوف تنتظر أيها القارئ ما الذي يقوله بعد كل هذه المقدمات الأمر برمته بسيط جداً ولا يحتاج بعد هذه المقدمات حتى للشرح أو الكتابة أو القول إنه حاضر في عقولنا جميعاً، ولا نريد لأحد أن يشير إليه لأنه واضح كالشمس، كبير ومتسع كالسماء وناصع كالبياض.

الحقيقة يا أهالي خربة الريحان التي تلوذ بأخلاقنا الآن وهي مقارنة بسيطة بين ما كنا عليه وما صارت إليه أحوالنا. الآن الحرب تحرق الأخضر واليابس ولا ترحم أحداً؛ والفساد المنتشر الآن كالسرطان في أجسادنا والذي خَلَعَ قيمنا وإنسانيتنا وجرّدنا من هويتنا لنصبح بعد كل ذلك مجرد لصوص وسماسرة وتجار حروب وقوادين ونصابين وأشباه مثقفين، شعارنا الفردية والأنانية والحرام.

بالمحبة يا أهلي..

يبدو أنني خرف فعلاً ما الذي أتحدث عنه الآن وأصبحت أخلط الأمور، فمنذ عقدين من الزمن لم نجتمع هنا مرة واحدة، آخر مرة في الانتخابات البلدية، عندما خرجنا غير متفقين، وتابع أعرف ظروفكم جيداً، صدقوني، ليست سبباً كافياً لما أنتم عليه ولا يمكن للظروف أن تكون سبباً لهذه النتيجة. كنا نعيش في عالم لا نتفق معه، نتيجة الفقر والجهل والتخلف ونظراً للمسافة الهائلة بين الواقع والطموح الذي كنا نصبو إليه، لكننا محكومون في العيش جنباً لجنب، ما لا

يطاق في هذه الحياة أساساً أن نبقى جثثاً حية، دون ملامح، وبوسعنا بعد ذلك أن نردم في مقابر جماعية إثر حروب خليجية أخرى، إن خرية الريحان قريتكم لا تَدعوها مزبلة خلافات ومرتع للفساد».

فيما بعد، بدأت أكتشف أن هناك علاقة بين كل ما هو موجود وأنه جزء من هذا الوجود على نحو تفصيلي وعجائبي ويبدو وكأنه للوهلة الأولى متكشف أمامك، لأنني سأكتشف فيما بعد أن هناك علاقة سبب وتأثير صارمة في الوصول إلى هذه النتائج الحيادية التي اتسم بها الاجتماع الأخير في بيت جدي وهذا بمفرده كان كافياً كمؤشر خطير إلى ما وصلت إليه الأمور في الفترة الأخيرة ما هو الجوهري في الحياة؟

سأل جدي سؤاله وصمت عن الكلام...!

أخذوا بالانسحاب واحداً تلو الآخر إلى أن بقي جدي بمفرده، وعجوزاه أمامه تُحدقان به مكسوراً ومفتتاً وحزيناً.

إلى أن خبا صيته ذات يوم بعد أن أعلنوا عن وفاته ووضعوا له شاهدة قبر في مقبرة القرية هكذا انتهت حياة جدي في وادٍ سحيق لا يعرف أحد كيف تلاشى في هذا الوادي والذي يفصله عن الساعد الغربي مسافة عطش.

وحينها يا سارة بقي خبر اختفائه محيراً لا يصدقه أهالي خرية الريحان وحسنة وفاطمة تنتظران أمام مضافته من الصباح الباكر حتى برد الليل. نبتت على درب مضافته الأعشاب وعشش فيها الحمام وفي خابيته وأجران قهوته بعد وفاة زوجته الأولى فاطمة ورحيل حسنة إلى أهلها ولم يعد أحد يمر من هناك حيث زالت معالم الساعد الغربي وبقي سراباً نرنو إليه مطلع كل شمس.

أصبحت الدار الواسعة مرتعاً للحيوانات ومبولة لعابري السبيل

وأعشاش السنونو، والقطط والكلاب والحمير السابئة إلى أن جاءت البلدية ذات يوم وقررت هدم المنزل نظراً لمرور شارع في المخطط التنظيمي الجديد لخربة الريحان.

مثل نوبة ظمأ، ذلك الإحساس الذي يغشي على هوى الحياة ويثقل علينا فجأة، ذلك الواقع الرهيب لخطورة الحياة وسؤالها الكبير إلى أين نمضي ومن أين أتينا، والتي انحدرت وما من قوة تستطيع الآن إيقافها عن ذلك الدمار والخرب الذي بدأ.

وبعد فترة قصيرة جاء داعٍ لعزاء حسنة، وهدمت البلدية الدار وبهذا انتهت سيرة نزل شيد ذات يوم في خربة الريحان بسقف قرميدي بارد لرجل يدعى شريف الرزاز.

كنا متقابلين أنا ونادر في منزله بالقرب من السيدة زينب، لم نشعر بالوقت الذي مضى ونحن نتحاور وبعد أن انتهيت من قصة جدي وسارة.

بقي نادر صامتاً لوقت، وهو يدخن ويضع رأسه المتعرّق بين يديه، وعيناه تسترقان النظر إلى حزني الذي بدا واضحاً ونقيماً، يدلف من عينيَّ والريح في الخارج تمور، تجعل من تقابلنا شيئاً لا يمكن أن يحدث مرة ثانية بهذه الصميمية. بينما الناس نيام في هذه الساعة المتأخرة من ليلة خريفية، في حين ظلت هذه الخواطر توصلني بنهاية جدي وسارة واللذين بقيا أمانة لم أمتلكها يوماً ما، ليس لكونه لم يحدث وإنما تلك المسؤولية التي تصبح فيما بعد قضية تبقى تشغلك، في الوقت الذي لا تعني أحداً على الإطلاق.

بعد صمته الطويل، أيقظ ذهوله، وهو يرفع سبابته في وجهي.

اسمع.. أستطيع أن أقول الآن إنك أنهيت روايتك والذي كان من المتعذر عليك إنجازها في يوم من الأيام، خاصة أنها كانت مجرد تهويمات وأوجاع ماضية مع الحياة، وحدث أن واجهت بمفردك سرد تلك الحكايا وأنت أعزل، مأخوذ بهزائمهم وربما لم يعنيني هذا يوماً ما، ما كنت تقصه عليّ بشكل متقطع أثناء لقاءاتنا المتكررة على سور المتحف لأعي الآن بعد كل هذه التفاصيل التي تستطيع أن تقولها في روايتك كلها نظراً لأنك حاولت أن تكون نزيهاً تجاه معظم الأفكار والوقائع التي حدثت حقيقة.

لا أعرف يا نادر إذا استطعت حقاً فك رموز هذا الانغلاق الذي لا يفك، وكثيراً ما أحاول البحث عن قارئ يواجهني من داخل الرواية

وليس بمعزل عنها، وأنا أذهب بعيداً بسياقات تجريدية، تهويمية خارجة عن سياقها المكاني والزماني، ولم أكن أدرك أن الفكرة كانت غائمة إلى هذا الحد بعيداً عن التفاصيل المدهشة التي من شأنها سلب القارئ تركيزه الفكري حول الفكرة وتركيضه بين الأسطر والكلمات وهو يتابع مصائر هؤلاء الناس الذين مسهم جنون التغيير وعلو الطموح، والإطاحة بالقيم المتخلفة التي جعلت منا مجرد دمى مسلوبة الإرادة، غير قادرة على ضبط إيقاعها الروحي ضمن جدوى الحياة وحقيقتها.

قد يكون لديك الحق فيما تقول خاصة إنني أعرفك جيداً، بالمناسبة متى تعرفت إليك، منذ زمن بعيد أليس كذلك، التقينا في الثمانينات جانب سور المتحف كنتُ أبيع الكتب المستعملة وكنت تعمل في مطبعة في البناء المقابل لسور المتحف، بعد أيام فقط جلسنا ومن يومها أشعر كأني عشت معك روايتك وأنت تتواطأ مع أحلامك وهواجسك وهي منفلتة ترتع في مطباتها الرحمية والقاسية معاً وأنت تنحني تحت عواصفها، تحميك أمنياتك الخبيئة بالمقاومة التي عززت صبرك أيام الشموس والأراضي الوعرة. ثم إنَّ الكتابة بالنهاية هي كقصة جدك تبدأ وتنتهي من حيث أردت من دون تفاصيل أو تواريخ أو سياقات متسلسلة لتفاصيل حياته، وكأنك فضضت عن هؤلاء الناس ذلك الحبس القسري لأرواحهم وهي متقطعة داخل زنازينَ محكوم عليها بالدفن يوماً ما وإلاَّ ما جدوى ما كتبته عن جدك من دون أن تزيل عنه ذلك الغطاء الواقي.

هذا صحيح من جانبٍ إلاَّ أنني أعتقد بأنني لم أصل إلى ما أردت، هناك شيء ما يا نادر في حياتنا لا يمكن القبض عليه، شيء ينفلت من بين أصابعك ومن تحت ناظريك وليس بمقدورك كتابته، أشبه

بالمحو والزهد، لأنه يزيّف أفكارك حين تشعر بكل هذه الوحشة وأنت تعيش في هذا العالم المليء بالقتل والموت، وأنت تطالع كل صباح في وسائل الإعلام، ترى مناظر الحروب والقتل والخراب والكوارث، وتفكر مئات المرات لماذا يحصل كل ذلك، أسئلة كثيرة تبدأ ولا تنتهي وأشعر بالعبث أثناء محاولة الإجابة عنها، إذ تتهيج الحواس وتمتلئ بذلك المزاج المتقلب وغير الحقيقي، بل والساذج أحياناً. دعك من كل هذا البحث وتعال نعد للرواية لو سألتك ذات يوم عن سارة وجدي.

المسألة ليست بهذه البساطة وهذا الوضوح وقصة جدك وسارة رهينة بقوة حواسك إن مصائرهم بدمك، ولا يمكن فصلها بهذه السهولة حتى لو كتبتها، إن تجربتي في النضال السياسي والعمل الفدائي قد جعلتني في البداية في أواخر السبعينات أجد أرضية لطموحاتي في وضع أفكاري قيد التحقق وبعد فترة من العمل في المكتب السياسي وجدت أنه من الصعب القبض على أرواح هؤلاء البشر الذين يفعلون غير ما يعتقدون أو يدّعون وأن معظم الفصائل والتنظيمات الفلسطينية بقيت مفككة تعوزها جهود كبيرة لكي توحد قواها الوطنية نحو مصير وهدف مشترك، أخيراً ما الذي آلت إليه الأمور أصبحنا مسالمين لهذا التفكك، لنحس بالنهاية أن التنظير شيء والواقع شيء آخر، إن نقل هذه التجربة لعمل روائي. قد يكون صعباً جداً إذا أردت قول الحقيقة وإذا كتبت بالعموميات سوف أتهم بالسطحية والتفاهة، إذن أنت أمام مشكلة حقيقية عندما تبدأ بالعمل، أو الكتابة لهذا أجد أن نهاية جدك بهذا الاستسلام هو حرب الخليج الذي جعل كل آماله تسقط في محرقة الواقع الفظيع ونهاية

العروبة.

بدونا حزينين، يملؤنا الحزن والفراغ، ونسبح في سائل لزج من العرق الذي منحنا فرصة وحيدة للوقوف لحظة بكل هذا التطهّر، نجيب عن الأسئلة الكثيرة التي محت طموحاتنا على نحو جنوني و قاتل.

لهذا قد يأتي قارئ أو ناقد لهذه الرواية ويقول بأنها تافهة، ماذا يهمنا من قصة جده. أو علاقته بسارة وسيتحدث عن البنيوية والحبكة والسرد والراوي، ويحاول تشريح الرواية على مقاييس، لكن ما الذي سيجعله يقف لحظة تأمل لضبط ذلك الإيقاع، عندما تنتهي مشاعرنا وأحلامنا بقصص أو روايات أو أشعار نهايتها مخازن الصحف والمجلات أو حاويات القمامة بعدما صار لون ورقها أصفر وذا رائحة واخزة.

هكذا تبدأ القصص هكذا تنتهي.

ودعت نادراً على باب بيته حيث كانت الساعة تشير إلى الخامسة فجراً وخرجت.

والبرد والعزلة ينخزان جسدي الذي تخللته الوحشة والخوف.


١٣٢

الفصل الأخير



للمرة الأولى أودع أمي

ألقي أوجاعها على الريح، وأعبر مدخل الدار الفسيح خارجاً، كان ذلك في بداية الثمانينات.

بهمس أمه الراعش، المترجّي.. صار له رنين ليلي غير قابل للفهم، خالطته رطوبة الأيام والكهوف المظلمة، وهو يخرج، نكهة ترابية جعلته يستحذي جرذاً.

ها هو ذا يندب الفجر بجسده الصغير، ويحار لمن يصيخ السمع، جسده كمن تدهسه أرجل عملاقة وهو يهبط في بطن المدينة التاريخية، أقدم عاصمة للحزن، فيما الخوف كان متربعاً، يكاد يخلعه كريح مجنونة.

فيما بعد، ليالٍ كثيرة وأنا أبحث عن أحلامي القادمة والمهربة التي عشتها في الريف والمدينة، وعن الهواجس والأسئلة التي بقيت بلا إجابات وهي تهرس أرواحنا كل مساء، فيما الاختناق كان بمفرده بطل تلك الأيام هكذا انطفأت أحلامنا وذكرياتنا في كلمات هزيلة برواية أو بقصص قصيرة أو بدواوين شعر أو بمقالات طويت في مخازن الصحف والمجلات وفيما بعد صار لورقها صفرة ذات رائحة واخزة هكذا تبدأ الحروب، وهكذا تنتهي.

«عندما تقصف الطائرات يموت الذين عند الباب، أما الذين في العمق فيسلمون قدراً..».

هكذا بقيت بعدها ثلاث ليال، ثلاثة نهارات، في المدينة وأذناه تلتاع بهمس أمه، هلعها يصير سديمياً، كائناً هلامياً، تتهالك عليه العذوبة والموت بآن واحد... ينخره البرد والعزلة، يتخلله الخوف، ثم

تصطليه شمس البراري اللاهبة والموجعة وهو يمضي في بيادر القمح والحمص والشعير.. بأذى ظل يلاحقه ويتربص به إلى أن محته ذات يوم سارة عندئذٍ يتوهج قلبه، ويقول:

«تلك هي الحياة»

فيخفق إلى الباب ليرى الكائنات البرّاقة في الشمس الدابة على هديها، تحت أفول المؤانسة والزيف على امتداد بعيد..

مَدَّ يده في العمق..

كان يجرب وقتها استقامة وصفاء روحه في الفجر، في الصفاء، في هذه البراري الندية والخالية من الموت والرصاص والقنابل، على أذنيه كانت طوابير الرصاص فالتة من سياق الزناد، ويهوي على موتاه.

انحدر نحو السفح.

لا أحد يعرف الآن، في هذه اللحظة بالذات وأنا أكتب، وأنت تقرأ، كم مرَّ من الوقت على هذا..

لا أحد يعرف لماذا أكتبه الآن..

ستجدون وقتاً عصياً وأنتم تسألون ماذا يكتب هذا الكاتب، ما الذي يريده، ستقولون هذه تهويمات، لغة مفككة، غير مترابطة، مصائر منفلتة من شرطها التاريخي، لكنني ببساطة أقول لكم كما قال عبد الرحمن منيف في قصة حب مجوسية: «... أريد أن أقول ما حصل. سأقول ما حصل حتى لو نزلت السماء على الأرض. وأنتم إذا شئتم اقرأوا، وإذا شئتم كفوا عن القراءة» أقول لنادر عندما نتقابل:

تصوَّرْ كم بإمكاني أن أقول لك بأن الحياة فعلاً جميلة، كثيرٌ من الصور تتماهى الآن، تذوب في ضباب كثيف.. تندثر، ثم تموت. ولا يبقَ سوى ذلك الزلال الأبيض الشفيف والرقيق معاً وذاكرة الأيام

القادمة بعيداً عن الخنادق والرصاص والدمار ولأني قادر على الحب إلى الآن، سأتطهر من درن العذابات التي شيدوها لنا وقالوا لنا بأنها نضال، ستقولون كذلك ما معنى هذا.. أو ربما تتساءلون خلسة ما الذي يقودك إلى ذلك... إنني لم أتعلم بعد الشفاء من أحاسيسي وخاصة عندما تستيقظ بعد شتاءات باكية وطويلة.

مِنْ أين يولد الحب..؟!

مِنْ أين يأتي... كيف ومتى ولماذا؟

كانت كلماته رجراجة مثل زئبق، كعينيه اللتين تزوغان تحت وهج الريح والشمس.

ما هدأت بعد..

روحه..؟!

أما أنت يا سارة، سأكتب لك ذات يوم عن الرماد.. عن الحب والصحو والطهر والخيال كذلك، لأننا كثيراً ما نكتب، ولأننا بحاجة لذلك، ولا تعتقدي ذات يوم بأننا نكتب لأحد نجهله، إننا بالكتابة نخفف عنا حدة الزمن ومهابة الموت وفقدان الآخرين ورحيلهم الفاجع والمباغت.

هكذا كتبت لسارة ذات يوم، بكثير من الحب والطمأنينة عله إن نال منها بياض كتابتي أن تغير رأيها وتعود من بلاد الصقيع والثلج.

بعدها انتظرت طويلاً..

طويلاً انتظرت..

وكأنَّ علي الانتظار..

أصبحت رهين عودتها!!

قلت لك يا نادر انتظرت طويلاً..!

فيما بعد...

التقيت نادراً على رصيفه، جانب المتحف الوطني المقابل لواجهة المكتبات في الطريق المؤدي إلى الجامعة جلسنا سويةً على حافة الرصيف، جمره المجنون ومصدر رزقه الوحيد، طلب لنا شاياً من الرجل العابر على دراجة هوائية كانت يداك ترتجف، بخجل وحنو قدمت لنا لفافة تبغ ودخنا سويةً.

نقرأ ونتحدث ونطالع عناوين الكتب والمجلات ونراقب المارة؛ نادر يسأل:

كم مر من الوقت على ذلك؟

مضى أكثر من ثلاثين عاماً، جئت من هناك من سرابات الأحلام الزائفة والباهتة والمنسية.

هناك؟!

حيث مرَّ التاريخ عند معبر الريح والحزن، الأشجار التي كانت تعبر، كانت توقظ في تلك الهواجس والاندفاعات التي فيما بعد أصبحتُ ممتناً لها، لما لها من أثر على تكويني الذاتي والنفسي والروحي، والتي لا زلت أملك فرادتها في التقصي والبحث عن الوجدان الإنساني، داخل هذه الأقفاص المغلقة والتي طوبها الجهل والتخلف والليل.

لا أعرف بماذا كنت أفكر وقتها يا نادر، لكن صوراً كثيراً كانت تعبر واقفة الآن أمامي، تتحدى في هذا الثائر، تلك النزوعات غير المحدودة، لاكتشاف ذلك العالم وترتيبه على نحو مغاير ومختلف، كما أمكن على الأقل بالنسبة إلي، لأنه سنجد فيما بعد

أنه من الصعب تغيير مسار التاريخ وطبيعة الإنسان، تقول لي بعض الأحيان: منجَز إنساني، وتشير دائماً إلى الرواية بوصفها أهمَّ منجز، لكنني أرى أنك بعض الأحيان تبالغ في سمو مشاعرك وبتلك وتعتقد أن الأمور بخير، إنني أرى عكس ذلك فالتمني لا يصبح حالاً، كما لا يمكن للواقع أن يستجدي خيالاَتنا ويستعطف إنسانيتنا. إنها القبلية التي تحكم العالم الآن وهذا الفكر الإنساني أرى أنه بقي حبراً على ورق، لم يطبق منه شيء وبقي الفكر الاجتماعي والفلسفي والاقتصادي والأدبي هو مثل مكتبة بورخيس التي تضم هذا المنجز و بقي العالم حيادياً تجاهها.

وكانت دائماً مجروحة، وكثيراً ما كانت تحاول الانتحار قبل ذلك، لأن مساحة الحلم كانت أوسع من الواقع. ذات مرة استيقظت على نحيب وبكاء مخنوق، كان ذلك أشبه بحلم، كابوس – ومن يومها بدأت تلك الحكاية المجنونة. حدث ذلك بعد مجيئي من القرية بأشهر قليلة – قربتها إلى صدري واحتويتها على مهل أهرب جنونها إلى وعيي وأمسح عنها المس والجنون محاولاً ذلك قدر الإمكان، وكانت مهمتي صعبة، على ذلك السرير العتيق، قرب نافذة للريح والشمس والمطر، قلت وهي بين ذراعيَّ، تشبهين قسوة الحياة وملوحة البحر، حاد ومجنون ومفزع لم يكن قد مضى على وفاة أمها وأبيها وقت بعد، قلت لي يا نادر وقتها:

- أنت لوثة حس يا سعيد!
- كيف يا نادر؟
- كان بمقدور ذلك الإحساس أن يدمر روحك ويقضي عليك!
- ومن قال غير ذلك؟
- لا.. الأمور يا سعيد يجب أن تستمر.

لم أكن قادراً على ذلك..

لأنني كنت ملتاعاً بتلك اللذة التي تصنعها أحياناً تعاساتنا لنكتشف فيما بعد، كم كنا تعساء، بقدر ما كنا سعداء.. لا أعرف ما الذي حصل، لكنني كنت متأكداً بشكل دائم من سلوكي النبيل تجاه سارة، لأنني سوف أشرح لك هذه القصة بالتفصيل.

بقينا وقتاً طويلاً، جالسين على حافة سور المتحف، ندخن ونحتسي الشاي، تحت شمس أيلول الخريفية، يحتسي الفرباء والسابلة دهشتنا، ونعلق على المارة، مثلما نتحسس جيوبنا ويطالعون بؤسنا، كعناوين الصحف اليومية.

ودعتك ومشيت

كنت هائماً على روحي، بينما كنت أتحسس نظراتك وهي تتسلقني من الخلف ومضيت.

أحسست بخطواتك القادمة خلفي، لم أتجاوز سور المتحف بعد، ناديت عليّ.

إلى أين تهرب.. قلت لي.

بقينا أنا وأنت ضائعين ونحن نتحاذى وندخن، تجاوزنا سور المتحف واتجهنا نحو حانة قديمة في شارع ضيق قديمة، باردة ورطبة ومظلمة. لكنها واسعة تقابلنا بصمت تحت قبب الحانة وأضوائها الخافتة النازلة من السقف، اقترب منا النادل، طلبت بيرة مثلجة، بعد قليل عاد وهو يحمل زجاجتين بيرة وصحن صغير من الفستق وورقة صغيرة وضعها على طرف الطاولة، كتب عليها أرقاماً ومجاميعَ توحي بدفع الحساب، بينما كنت ترقبني كنت أسحق سيجارتي في الصحن بعصبية.

رفعت رأسي بتثاقل، لأرى عينيك وهما تسبحان في بركة دم متخثر، زائغتين، وعنيدتين، بالرغم من الألم، لا تعرف كيف استطعنا بكلمات بسيطة ومحدودة أن نسحق أرواحنا بهذه البساطة، وبهذا الطهر والعفوية، كنت تحكي عن النزوح والتشرد والفقر والغربة والموت والنقيب العربي وكنتُ أتحدث عن خربة الريحان والخراب الذي لحقها وانقلاب القيم والازدواجية والحب أيضاً.

قررنا الخروج من الحانة فجأة، طالبين فسحة هواء مع حلول المساء ورطوبته، وليل دمشق.

باتساع الأزقة اللاهبة، سرنا نحو المجهول نتحسس عرى وثاقة الروح والفيض والسكون.

يومها غنيت قصيدة صديقك الشاعر

ما الذي يفعله الشاعر

غير أن ينزل أدراج المواويل إلى ركن حزين

ما الذي يفعله

في وقت كهذا

غير أن يسقط من أعلى الحنين

ما من قوة الآن تجعلك تصحو تحت هذا السكر المفتوح والمعلن لترانيم عذاباتك السخية والمستحية والفاجعة معاً، غير لفافات تبغك اللاهبة، مجامر موت هذيانات تتسرب مسالك عبور للذي لم ترد أن تتجزه بعد، من حياتك.

آه يا نادر...!؟

عندما تلاقت نظراتنا فجأة.

انحدرنا نحو الحديقة واكتفى كل منا بهز رأسه من دون تفسير لما يحدث، أو ربما يحدث، عند مسدة الجسد، الذي خانه طقسه المندّى

بالحناء والبخور، إن ما يجعلنا على هذا النحو السديمي والجنوني واللامتناهي من الحزن والألم، هو خوفنا الذي نبت ولم ينتهِ بعد، هذا ما كنت أفكر به عندما عاودت سؤالي لنادر بينما سعيد كان يضغط على روحي بإلحاح.

هل تعتقد أن الرواية نجاة يا نادر؟

ظل صامتاً وكاد أن يفدي صمته، انزلاقه، إلاّ أنني سرعان ما أسندته إلى الحائط القريب والمجاور، ظل واقفاً يرتدي حنينه مثل شجرة ظليلة تحت عبور السراب النازف حيرة وهذيان.

شباط / ٢٠٠٥

انتهت



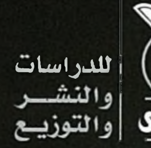
المؤلف

- عضو إتحاد الصحفيين في سورية
- مدير دار نينوى للدراسات والنشر
- ناقد وصحفي
- رئيس تحرير مجلة الوردة
- رئيس تحرير مجلة موضة

صدر له

- لذة القراءة في أدب الرواية







لوحة الغلاف : الفنان ياسر حمود